سامي الكيالي

مع طه حسين

اقرأ

١١٢

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٢ - مايو سنة ١٩٥٢



الإهداء

إلى تلك الزوجة الكريمة ...

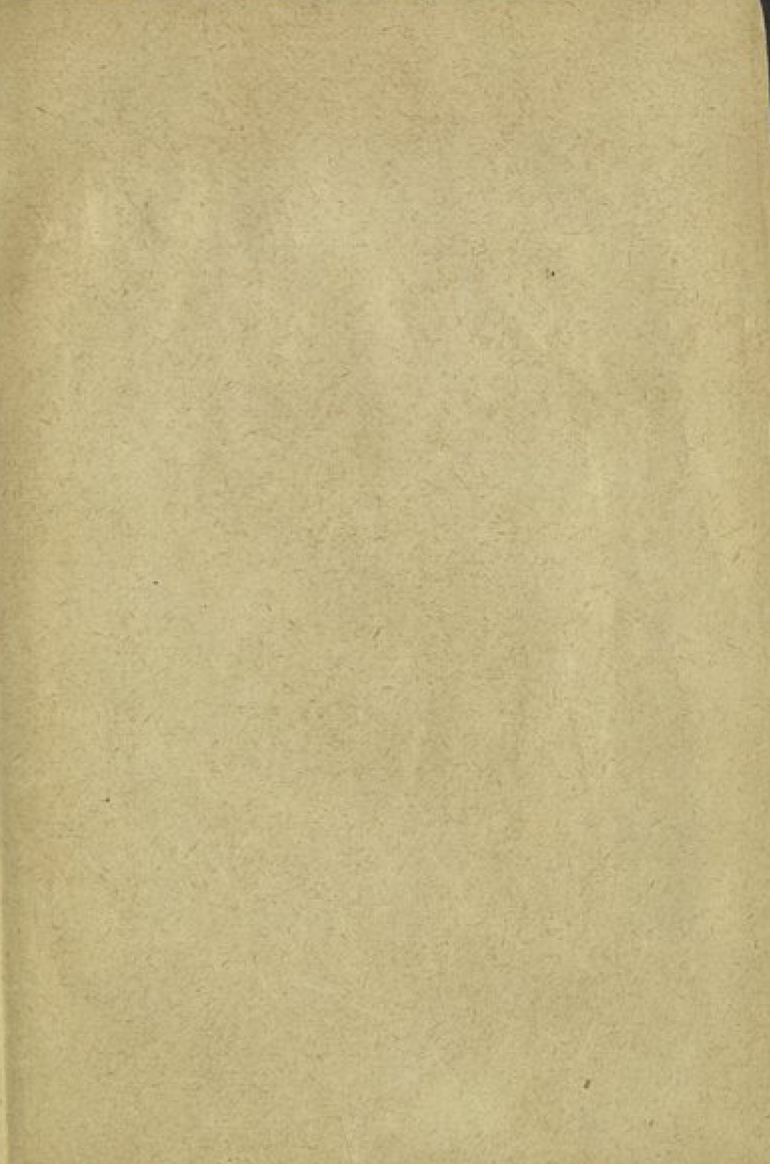
إلى السيدة التى أحاطت زوجها بعطف نادر المثال — عطف الأم الرءوم على فلذة كبدها الوحيد ...

إلى المرأة المثالية التى كانت له نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس ...

إلى مدام طه حسين

أهدى هذه الصفحات .

« س »



١

عميد الأدب العربى ، المفكر الحر ، صاحب المدرسة الحديثة التى وجهت الدراسات الأدبية وجهة جديدة نقلتها من عصر الميوعة والتزمت والانحطاط إلى عصر القوة والحرية والانطلاق، المؤلف ، الناقد ، الأديب ، القاص الذى رشحته الهيئات الأدبية فى الغرب لجائزة « نوبل » معرى القرن العشرين . ومفخرة مصر والعرب . . .

الدكتور طه حسين

إن الحديث عن هذا العبقرى الفذ يحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل . فهو دنيا قائمة بذاتها ، وحياته نفسها قصة من قصص البطولة ، بطولة الفكر اليقظ وعبقرية الذهن المنتج .

...

فتى من أرياف مصر ، لم يتميز عن لداته وأقرانه إلا بحدة الذهن وقوة الملاحظة ... ما كادت الأقدار تصل بينه وبين دنيا المعرفة حتى سار فى طريقه المتعب الشاق يقفز قفزاً ... ويترك زملاءه وراءه وهم فى حيرة وذهول من سرعة سيره وقوة

قفزه .. وسرعان ما ترك القرية إلى مصر .. ومن مصر إلى باريس .. أى من الأزهر إلى السربون ...

ماذا ؟

قروى من ريف مصر . . . وأزهرى معمم من أقحاح الصعيد يصبح ، مع عاهته التى أفقدته بصره وهو طفل ، يصبح من طلاب السوربون فى جامعة باريس .. نعم ... هكذا كان . ولم يكد يتم دراسته الجامعية فى باريس حتى اختير مدرساً فى « الجامعة المصرية » بعد أن كتب كتابيه الخالدين : « ذكرى أبى العلاء » و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ... والأول بالعربية ، والثانى بالفرنسية . . ومن التدريس فى الجامعة إلى عمادة كلية الآداب ، مع الكتابة المستمرة فى الصحف والمجلات التى جرت وراءها خصومات أدبية عنيفة وجهت الفكر العربى توجيهاً حراً ، ووجهت الأدب العربى توجيهاً صحيحاً ، إلى هذه المؤتمرات العالمية التى حضرها فكان فيها موضع إعجاب وتقدير أكابر المفكرين والمستشرقين بصورة خاصة ، إلى هذه المؤلفات فى شتى ميادين الفكر والحياة والأدب ، إلى عشرات المآثر الكبرى التى دخل غمارها بقوة وعنف وما زال حتى خرج منها يعلو جبينه الغار . وأخيراً إلى وزارة المعارف يرسم الخطط القويمة لمحو الأمية ، والنهوض بمصر لتبلغ أسمى

ما نحلم به أمة تريد التحرر والسير فى مواكب الحضارة .

وفى كل فترة من هذه الفترات تاريخ ملىء بالحياة والمجد والعظمة . ولا أريد هنا أن أكتب قصته ، وهى سفر طويل تضيق به هذه الصفحات المحدودة من هذه السلسلة الكريمة ، بل أريد أن ألمح إلى هذه المراحل من حياته الفكرية ... أعتمد فيها على كتبه وبعض ما كتبه ، وهى تصور ملامح من حياته الفكرية ، هذه الحياة التى تزداد نوراً وإشراقاً ، وفيضاً وسناء كلما تقدمت به الأيام .

٢

ترجع صلتي بطه حسين إلى ما يقرب من ثلاثين سنة ...
كنت في بدء حياتي الأدبية أقرأ كل ما يقع تحت يدي ، وقد انجذبت منذ نشأتي الأولى إلى أدباء مصر . قرأت شوقي وحافظ والمنفلوطي وقاسم أمين وفريد وجدي وفتحي زغلول باشا... وكان لشعر حافظ إبراهيم – شعره الذي يصور فيه أمراضنا الاجتماعية – كان لهذا الشعر الاجتماعي أثره القوي في نفسي ، وقد وجهني إلى نظم الشعر ، فنظمت المقطوعات الصغيرة ، والقصائد ذات العشرين والثلاثين بيتاً . وكنت أزهو بشعري وهو لون من السخف . وشاء الله أن ينقذ الشعر مني ، وإلا لكنت اليوم في عداد الكثيرين من الشعراء النظّامين الذي يشكو الأدب العربي غلظتهم وسخفهم وهراءهم !

ومن حافظ إبراهيم الذي ظللت زمناً أترنم بشعره ، وأفضله حتى على شوقي – إلى طه حسين ...

وقع بيدي كتابه « ذكرى أبي العلاء » وأنا مريض فقرأت باحثاً ينفذ إلى صميم أبي العلاء... فما كدت أفرغ من تلاوة كتابه حتى أحببت الرجل ، وأخذت أتابعه في جميع ما كتبه .

ورجعت إلى مجلدات « المقتبس » التى كان يصدرها البحاثة محمد كرد على فعثرت على مقالات للشيخ طه الأزهرى ، أى طه حسين ، فقرأتها . . . ولم تكن ذات بال . على أن كتابه « ذكرى أبى العلاء » قد فتح أمامى نوافذ تطل على الحياة العقلية عند العرب . كان النهج جديداً ، فالدراسات الأدبية كانت بين يدى أعلام يرددون ما سبقهم إلى ترديده شيوخ الأدب فى العصرين الأموى والعباسى والذين كانوا نسخاً مكررة لما فى تلك الكتب من نصوص ، فلا تحليل لشعر الشاعر ، ولا درس لحياته ، ولا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التى كونته. . . كان البحث يدور عن تاريخ ولادته ، ونبذة من سيرته كما أثبتها القدماء ، ونماذج من نثره وشعره ، وكفى الله شيوخنا الأعلام مشقة الدرس والبحث!

لقد انتهيت بعد أن قرأت هذا الكتاب إلى أن الدكتور طه هو أول من وضع أسس البحث العلمى فى الدراسات الأدبية . قد يقول قائل إن المستشرقين قد سبقوه إلى هذا النهج . . . ولا يقول الرجل إنه من المبدعين له ؛ بل حسبه أن كان أول وأجرأ أديب عربى معاصر حطم تلك القيود القديمة فى البحث وانتهج النهج الجديد الذى تسلكه الأمم الحية فى دراسة آدابها . . .

وقد أصبح ، بهذا النهج الذى اصطنعه ، صاحب مدرسة جديدة فى الأدب ، سار فى إثره الكثيرون من أعلام الكتاب . كما نهج نهجه تلامذته الجامعيون ، وما أكثرهم ، وهم اليوم رمز النهضة الأدبية المعاصرة لا فى مصر بل فى الشرق العربى كله ، وفى أجزاء كثيرة من المغرب العربى ... حتى فى المهجر الأمريكى . . .

٣

بعد هذه التوطئة أقف وقفات قصيرة مع بعض كتبه أتبين بعض صورها وملامحها وأثرها فى نفوس النشء ، وما أحدثته من تيارات فى أدبنا وفى حياتنا العقلية .

لقد قلت إن أول كتاب قرأته لطه حسين هو كتابه « ذكرى أبى العلاء » ، وهو كتاب عرض عرضاً شاملا حياة الفيلسوف أبى العلاء وشعره ونثره وكتبه وعقيدته وفلسفته وبيئته والحياة السياسية والفكرية فى عصره ... ومع أنه ، قد مرّ على صدور هذا الكتاب أكثر من ثلاثين سنة . فلا يزال ، بعد أن أضاف إليه بعض الفصول ، من المراجع الأدبية الهامة فى فهم الكثير من حياة أبى العلاء وعصره وفلسفته .

كتب طه حسين هذا الكتاب وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وقد تقدم به إلى « الجامعة المصرية » ليجوز امتحان عالميتها . وكان ذلك سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف .. أى قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد نال شهادة الدكتوراه بتفوق . وكان ذلك بدء ذيوع هذا الشاب ..

وقد تلقى الناس هذا الكتاب بكثير من الاهتمام .. لأنه

لون جديد من الدراسة الأدبية .. وكانت المفاهيم آنئذ لا تهضم هذا اللون من البحوث الجديدة .. فما كان من أنصاف الأدباء والمتزمتين وأصحاب العقول المتحجرة إلا أن هاجموه بعنف ، وأخذوا يحبرون مقالات السب والشتم .. وإلى هذا أشار فى مقدمة الطبعة الثانية للكتاب :

« .. ولقد كنت أود لو وجدت فيما كتبوا شيئاً يستحق أن يسطر أو يناقش .. ولكنى آسف الأسف كله . لأنى لم أجد فيما كتبوه إلا شتماً وسباً ، وإلا طرقاً فى الفهم معوجة . ومناهج فى التفكير عتيقة .. » — هـــذه الطرق المعوجة وهذه المناهج العتيقة هى التى حاول طه حسين أن يهدمها . وقد حمل معوله وأخذ يهدم هـــذه الأسس ، وما زال إلى أن وفق إلى تغيير المناهج والقضاء على الطرق المعوجة قضاء مبرماً .

• • •

أظهر ما فى كتاب طه حسين « ذكرى أبى العلاء » . فهمه لفلسفة أبى العلاء وردها إلى مصادرها وتصويره بيئة أبى العلاء وحياته تصويراً رائعاً .. ثم هذه الألوان التى أضفاها على الدراسة الأدبية بهذا المنهج الجديد الذى أصبح سنة للباحثين من بعده .

ولست أريد فى هذه السطور أن ألخص ما كتبه طه

حسين عن نده وزميله أبي العلاء . فموضوعنا لا يتناول هذه الناحية . . ولكن ظهور هذا الكتاب ، وظفر صاحبه بدرجة العالمية ، وهي أول شهادة تمنحها الجامعة لأول تلامذتها ، ودرسه حياة أبي العلاء دراسة جديدة . وما أثاره صدور الكتاب من نقد وتجريح هو الذي حفزني أن أشير إلى بعض الملابسات التي رافقت صدوره .

فقد كثر التهجم على طه حسين حتى أرجف بعضهم بقوله : « . . إن طه حسين جنى على المسلمين فأخرج من بينهم رجلا من خلاصتهم . . » وقال بعضهم الآخر : « إنه جنى على أبي العلاء فأخرجه من دين الإسلام ! » .

بهذه العقلية المتحجرة قوبل كتابه ، وهكذا هوجمت طريقته في البحث ، وفاتهم ، سامحهم الله ، أن طه حسين لا يملك ، كما قال أكثر من مرة ، أن يدخل في الإسلام أو يخرج منه أحداً ، وإن كل ما عمله هو تصويره الدقيق لأبي العلاء ولحياته وأدبه وعصره وفلسفته وعقيدته . أي أن مهمته اقتصرت على إبراز أبي العلاء بشخصيته الواضحة وتفكيره الصحيح لا بتلك الأوشاب والتخرصات التي علقت بحياته على مر العصور

٤

لم يكن طه حسين هذا الإنسان الذى يغريه المجد الرخيص
فيقف عنده مباهياً مزهواً . . ولا هو ممن يستمرئون الكسل
على حياة الجد والعمل . .لا . . لم يكتف ، وهو فى فجر
شبابه ، بهذا المجد ، فقد كانت نفسه تنزع إلى ما هو أسمى
إلى أن يكوّن نفسه تكويناً علمياً فذاً .

وماذا بعد هذه المرحلة ؟

هل يظل فى مصر يستمع إلى أقوال الجهلة المتخرصين ؟
ولا سيما بعد أن ذاق حلاوة النهج العلمى الذى رسمه له
أساتذته الجامعيون من فحول المستشرقين ؟

لا . . إذن فليول وجهه شطر الغرب . . وليرسم لنفسه
خطة تغاير ما ألفه من قبل .

لقد ترك الناس فى مصر يتخبطون فى شأنه وشأن كتابه . . .
وسافر إلى باريس يرشف من مواردها أصفى المناهل العذبة .

لقد كان طه حسين طالباً بالجامعة المصرية منذ تأسيسها ،
وكان أول من ظفر بشهادتها العلمية حتى عدّ ابنها البكر .

وذهب فى بعثة إلى فرنسا ليتمم دراسته . وقضى

عامين تلميذاً فى السربون وفى الكوليج دى فرانس .

ولا بأس أن نلمع إلى هـــذه الفترة الحاسمة من تاريخ حياته ...

من الأزهر إلى السوربون

من الحياة الشرقية بتقاليدها وقيودها إلى الحياة التى يحياها أبناء الغرب بحريتها وانطلاقها .

فقد كان طه حسين ، وهو فى الأزهر ، مثال الطالب الذكىّ ، الدءوب ، المجتهد ، الذى استطاع أن يتفوق على زملائه ، وأن يلفت إليه نظر أساتذته الذين أعجبوا به وضاق بعضهم من كثرة إحراجه !

وفى حديث له عن المدة التى قضاها فى الأزهر قال :

« إن المدة التى قضيتها فى الأزهر كانت فترة انتقال ، فكان محمد عبده يفسر القرآن على طرق حديثة ، والشيخ المرصفى يعلمنا الأدب ، وكلاهما يذمّ الطرق الأزهرية . وكان قاسم أمين يقول بحرية المرأة ، وفتحى زغلول يترجم لنا كتباً قيمة ، و « الجريدة » تنادى بمعايير جديدة فى السياسة والاجتماع ، فكنا فى اضطراب ذهنى لا نستقر ، وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفى أن طرق الأزهر عتيقة ، فكنا نتكلم ونتناقش عن الإصلاح الذى كان يقول به الشيخ محمد عبده

وقد حضرت له محاضرتين ... وحدث أنه بينما كنا نقرأ "الكامل" للمبرد وردت هذه العبارة : « ومما كفر الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره : "إنما يطوفون برمة وأعواد" ، فقلت أنا إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب . وبلغ قولى هذا شيخ الجامع الأزهر ، وسمعت أنه سيطردنى فذهبت إلى "الجريدة" أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع . وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفى السيد فرفض المقال ، ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعى أنا وسائر من غُضب عليهم إلى الأزهر ... وتبين بعد ذلك أن طردنا لم يتقرر . ولكن من ذلك الوقت شعرت أن الأزهر لم يعد يشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة المصرية » .

وإذ علم أن مدرسى الجامعة من الشرقيين والغربيين ، وأن إحدى اللغات الأجنبية ستكون أداة لتفهم المحاضرات والدروس التى ستلقى على الطلاب ، اختار الفرنسية يتعلم مبادئها . وكان فى حى الأزهر مدرسة ليلية تدرس الفرنسية وتتقاضى ، على ما قيل ، خمسة قروش فى الشهر من كل طالب فانتسب إليها واستطاع ، خلال خمسة شهور ، أن يلم بالفرنسية وأن تكون عوناً له على تفهم محاضرات الجامعة

التى يلقيها الأساتذة الأجانب بالفرنسية .

وشعر التلميذ طه حسين بنشوة جديدة وهو يتلقى دروسه على أساتذة غربيين ومستشرقين اعتمدوا فى تلقين تلامذتهم مناهج البحث الجديد . . وهى مناهج تختلف كل الاختلاف عن مناهج الأزهر .

وقد حببت إليه الدروس الجامعية الاستزادة وظل فى الجامعة يروى ظمأه العلمى ، ويجوز الفحص بتفوق سنة فسنة ، حتى عام ١٩١٤ حيث تقدم برسالته الجامعية لنيل شهادة الدكتوراه كما ألمعنا ، وهى أول شهادة تمنح لطالب مصرى يتقدم لنيلها . . .

ومن هو هذا الطالب ؟

شيخ أزهرى ضرير يكتب رسالته عن شاعر فيلسوف ضرير . عن صنوه فى الذكاء والمعرفة . عن أبى العلاء !

لقد اهتمت الأوساط العلمية والأدبية بهذا الحادث أكبر اهتمام . . .

وقد يكون من الأمانة العلمية ، ووفاء لتاريخ هذا الرجل ، أن نثبت فيما يلى نص المحضر الذى وضعته اللجنة الفاحصة :

« . . فى يوم الثلاثاء الخامس من مايو سنة ١٩١٤ ،

فى الساعة الخامسة مساء ، اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالمية ، المؤلفة من الأستاذ محمد الخضرى رئيساً ، والأستاذين محمد المهدى ، ومحمود فهمى ، المدرسين بالجامعة. والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المندوبين من نظارة المعارف أعضاء لامتحان الشيخ طه حسين ، الطالب بالجامعة المصرية ، وكان اجتماعها بهيئة علنية .

ناقشت الطالب فى الرسالة التى قدمها فى تاريخ أبى العلاء المعرى ، ثم فى العلمين اللذين اختارهما . وهما " الجغرافية عند العرب " و " الروح الدينية للخوارج " واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق . وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات ، فقررت أنه يستحق :

(ا) درجته جيد جداً فى الرسالة .

(ب) درجته فائق فى الجغرافية عند العرب .

(ج) درجته فائق فى الروح الدينى للخوارج » .

وفى منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور الذى احتشد فى قاعة الامتحان . .

فارتاح مجلس الجامعة لهذه النتيجة ، وقرر تبليغها لسمو الجناب العالى الخديوى . والتماس تقديم الشيخ طه

حسين لأعتابه الكريمة ، بإشارة برقية هذا نصها :

« حضرة باور جناب خديوى المنتزه

الجامعة المصرية المشمولة برعاية الحضرة الفخيمة الخديوية عقدت البارحة لأول مرة امتحاناً علنياً ، تقدم إليه الطالب الشيخ طه حسين الكفيف البصر لنوال الدكتوراه فى الآداب . وقد فاز فى هذا الامتحان فوزاً باهراً ، ونال فيه أعلى الدرجات ، وهذه أول ثمرة من غرس ولى النعم . فمجلس إدارة الجامعة يلتمس من مكارم الجناب العالى الخديوى ، إن سمح وقته الثمين ، الإذن السامى بحظوة الطالب المذكور بالمثول بين يدى سموه .

وكيل الجامعة

شفيق

وقد كان لهذه البرقية أثرها فى نفس سمو الخديوى ، فأذن بالمقابلة وتحدد الموعد . . . ويشير نص المحضر إلى ما يلى :

« فى الساعة الرابعة من مساء يوم الثلاثاء ١٢ من مايو سنة ١٩١٤ تشرف صاحب السعادة أحمد شفيق باشا وكيل الجامعة المصرية بالمثول بين يدى الجناب العالى ، وقدم إلى سموه الدكتور طه حسين ، فتلقاهما سموه ، حفظه الله ، بما عهد فيه من البشاشة والبشر ، وأظهر من العطف على

الجامعة وخريجيها ما يستحقان أن يهنأ به ، ولبثا بين يديه مدة من الزمن ، وكان سموه يتفضل ويسأل سعادة شفيق باشا عن كيفية امتحان الدكتور طه حسين ، وموضوعه ، وأسماء الممتحنين ، والدرجات التى نالها فى الامتحان ، فإذا شرح لسموه ذلك ، وعلم أيضاً أنه أمضى امتحانات آداب اللغة الفرنسية ، أظهر من السرور والابتهاج ، ومن الإعجاب بنتيجة الجامعة المصرية ، والاستبشار بجمال مستقبلها ، ماهو ضمان لحسن منزلة الجامعة من قلب الخديوى حفظه الله ، وعظم حظها من عطفه السامى ، ومعونته المالية . وقد أعجب سموه إعجاباً خاصاً ، حين علم أن الدكتور طه حسين قد درس الفرنسية ، وأدى فى آدابها امتحاناً نال فيه ٢٨ من ٣٠ درجة ، وقد تفضل سموه فسأل الدكتور طه حسين عن مبدأ دراسته ، وعن المدة التى قضاها فى الأزهر الشريف . ولما علم سموه بعزم " الجامعة المصرية " على إرسال الدكتور طه حسين إلى أوربة لإتمام درسه هناك ، أظهر من الرضا بذلك ، والسرور له ، ما شجع الدكتور طه حسين على كل ما عسى أن يلقى من المتاعب فى سبيل العلم وتحصيله ، لنفع الأمة والجامعة المصرية ، ثم مثل الدكتور طه حسين بين يدى المليك وقال :

" إن الجامعة هى من غرس يدك الكريمة ، وربيبة نعمتك الشاملة ، وإنما أنا ثمرة من ثمارها ، وأثر من آثارها فليس عجيباً أن تكون حياتى مثال الإخلاص والولاء لحضرتك الفخيمة ، وشخصك الكريم ، بذلك أدين الله وأعاهد مولاى . . "

فارتاح الخديوى إلى هذا الكلام . وشكر الدكتور وكيل الجامعة شكراً جميلا ، وانصرفا من لدن سموه وألسنتهما منطلقة بالثناء عليه ، والدعاء له بدوام العز وطول البقاء » .

٥

أخذ الدكتور طه يعدّ العدّة للسفر إلى باريس . . ولم يكن ذا سعة ، ولم يشأ أهله أن يقفوا دون تحقيق رغباته بالرغم مما هو عليه . . وكان لتفوقه أثره فى نفوس الجميع . من عرف ومن لم يعرف .

ولعل من أطرف وثائق الجامعة القديمة أيضاً ذلك الالتماس الذى قدمه إليها الطالب الأزهرى السابق الشيخ طه حسين – هكذا – لكى تقرضه خمسة عشر جنيهاً يشترى بجزء منها ملابس أفرنجية بدلا من زيه الأزهرى . ويسدد بالباقى أجرة الغرفة التى كان يسكنها ، استعداداً للسفر فى البعثة إلى باريس فصرفت له ، كما صرفت له المكافأة التى وقفها الدكتور محمد علوى باشا ابتداء من عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم حسين علوى ، وقدرها عشرة جنيهات لمن ينبغ من طلاب الجامعة المصرية عن سنتى ١٩١٣ و ١٩١٤ بالنظر لتفوقه فى الدراسة ونواله إجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جداً .

٦

وفى شهر مايو من سنة ١٩١٤ ، ركب الشيخ طه حسين البحر فى طريقه إلى فرنسا ، وما كاد يصل إلى مرسيليا حتى أخذ طريقه إلى مونبليه لدراسة العلوم التاريخية .

وقد أيقظ السفر فى نفسه عوامل مختلفة سجلها أكثر من مرة فى رسائله التى كتبها من باريس . وليس هنا موضوع هذه الرسائل التى تضمنتها بعض كتبه بل حسبنا أن نشير إشارة خاطفة إلى سنى دراسته فى باريس ، ونعتمد على بعض أحاديثه فى هذا الصدد ، قال :

« . . وصلت إلى باريس فى أول يناير سنة ١٩١٦ ، بعد ما مكثت عاماً فى مونبليه ، وكنت قد بدأت الدراسة بها . ثم ساءت حالة الجامعة المالية فأعادتنا فى أواخر عام ١٩١٥ . ومكثت ثلاثة أشهر فى مصر . وما أحسبنى تألمت فى حياتى تألمى فى هذه الشهور الثلاثة ، وأثر هذا الألم لانقطاع دراستى قد ظهر فى مقالات بجريدة "السفور" ، وبعد ذلك ساعد المغفور له السلطان حسين الجامعة فأعادنا إلى باريس .

« وأول ما وصلنا نزلنا فى تريانون بالاس أوتيل فى أول

شارع فواجيرار ، ومكثنا بضعة أيام ، وبعد ذلك سكنت عند عائلة تقطن الطابق السادس من البيت نمرة (٣٢) بشارع ديفير روشروه . . وفى تلك العائلة فتاة كانت تدرس بمدرسة المعلمات بسيفر فساعدتنى كسكرتيرة ، والفضل لها فى أنه أمكننى أن أدرس اللاتينية . كما درستها مع شارل بران الصحفى المشهور والأستاذ بمدرسة لوى لوكراند . وفى عامين درست اللاتينية ، وبذلك أتممت ما يقضيه الشاب الفرنسى فى ست سنوات بين ثانوية وعالية .

« كانت حياتى بباريس مقسمة بين ثلاثة معاهد أو أربعة : السربون ، وفيه كنت أحضر دروس التاريخ القديم ؛ تاريخ اليونان على جلوتز ، وتاريخ الرومان على بلوك . والأدب الفرنسى على لانسون ؛ والفلسفة والاجتماع على دوركايم ، وديكارت على ليفى برول ، واللاتينى على مارنا ، والثورة على أولار ، والبيزنطى على شارل ديل ، والتاريخ الحديث على سينبوس ، والجغرافيا على ديمانجون وجالوا .

« والمعهد الثانى هو الكوليج دى فرانس ، وكنت أحضر فيها درس القرآن بالعربية على كازانوف ، وعلم النفس على بير جانيه .

« والمعهد الثالث مكتبة القديسة جنيفياف . كانت تصحبنى الآنسة ، وكانت لى غرفة خصنى بها مدير المكتبة .

وكنت ألجأ إليها شتاء عام ١٩١٧ ، وكان البرد شديداً ، ولا وسيلة إلى التدفئة فى البيت ، فكنا نذهب لندرس ونتدفأ فى وقت واحد .

البيت : أعده المعهد الرابع ، فقد كنا نجتمع فى المساء، الآنسة وأختها وأمها وأنا ، فتقرأ إحداهن رواية ، أو رواية تمثيلية أو قصة أدبية ، فقرأنا تمثيل القرن الماضى . وكثيراً من كتب أناتول فرانس وبورجيه وبريفو ، وكنا نقرؤها بانتظام بعد العشاء كل ليلة ولا يقطعها إلا مداهمة الطيارات واضطرارنا إلى النزول فى " البدروم " . ولم تمض أشهر على إقامتى فى باريس مع هذه العائلة حتى أحببت الآنسة التى كانت تعمل معى وخطبتها ، وبعد سنتين ، أعنى عام ١٩١٧ طلبت من الجامعة الإذن بالزواج فأذنت ، وتزوجنا فى أغسطس ولكن بعد ما كنت قد أديت امتحان الليسانس » .

. . .

لقد أحب طه حسين تلك الفتاة الفرنسية التى كانت النور الذى أضاء له جوانب حياته .. وما كان وهو فى باريس ليفكر بالحب الآثم .. وأراد أن يتزوجها لتكون شريكة حياته .. وقد قامت دون هذه الرغبة عقبات . فما كان ليسمح للطلاب بالزواج من الأجنبيات . وعلى طه حسين ، الشيخ الأزهرى ،

أن يخضع لما تفرضه الأنظمة .. ولكن هناك عوامل كانت تدعوه أن يربط حياته بمن خفق قلبه بحبها وكانت له خير أنيس يبدد هذه الوحشة من غربة السفر ويضيء بعض ما نزل به من ظلمة القدر .

وتقدم إلى الجامعة يلتمس الإذن له بالزواج الاستثنائى . وقد شرح العوامل التى دفعته لهذا الزواج ومما جاء فى خطابه قوله :

« إنه بالنسبة إلى حالته الطبيعية الخاصة التى تقتضى اشتراك شخص آخر معه ليساعده على الدراسة ، وبالنسبة إلى كونه ، مدة إقامته فى فرنسا ، وجد فى أسرة منها فتاة كانت قارئته وكاتبته . وقد أخلصت له الإخلاص كله ، بحيث أصبح لا يرى بدًا من مرافقتها ، فهو يلتمس من الجامعة التجاوز له عن الشرط القاضى بعدم زواج الطلبة مدة دراستهم ، والإذن له بصفة استثنائية فى الزواج » .

وقد تداول المجلس فى هذ الموضوع ، واختلفت الآراء فيه ، فبعضهم قبل بالموافقة على هذا الطلب الاستثنائى ، مراعاة لحالة هذا الطالب الخصوصية ، وبعضهم قال بالرفض احتراماً لقرار المجلس السابق صدوره فى ١٥ مارس سنة ١٩١١ القاضى بعدم جواز تزوج طلبة الإرسالية ماداموا فى سلك الدراسة بأوربا ، وبعد

مناقشة طويلة تقرر أخذ الآراء . فكانت النتيجة ما يأتى :

ا :

١ – إسماعيل حسنين باشا ٢ – عبد الله وهبى باشا ٣ – حسن سعيد باشا	أبدوا رأيهم برفض الطلب

ب :

١ – الدكتور محمد علوى باشا ٢ – المسيو فوكار ٣ – عبد العزيز فهمى بك ٤ – أحمد لطفى السيد بك	أبدوا رأيهم بقبول الطلب

وهكذا . فقد تقرر بالأغلبية الإذن للشيخ طه حسين بالزواج من الفتاة التى يرغب فى الزواج منها .

وكانت هذه الفتاة الآنسة سوزان وقد أشار روبير لاندرى ، الكاتب الفرنسى الشهير ، إلى هذا الزواج بقوله :

« . . وذات يوم بينما كان طه حسين على مقعده فى قاعة المحاضرات فى جامعة السربون سمع صوتاً جميلا يرن فى أذنيه . صوت صبية حنون تقول له بعذوبة :

إنى أستطيع أن أساعدك فى استظهار الدروس . كانت

صاحبة الصوت سوزان التلميذة الفرنسية المنحدرة من عائلة كاثوليكية فى مدينة بورغون .

وقد ظلت سوزان تتردد زمناً طويلا قبل أن تتزوج طه حسين المسلم .

ولكن أحد أعمامها استطاع أن يقنعها ، وكان ذلك العم قسيساً ، وقد قال لها : « مع هذا الرجل يمكن أن تثقى بأنه سيظل معك دائماً » .

وعاشت سوزان وطه حسين فى منزل متواضع فى الحى اللاتينى . وهنا بدأت مهمة الزوجة المثالية فى إخراج زوجها عن عزلته الروحية والمادية عن الناس ، وعاش طه حسين معها وأصبحت سوزان " الحاسة السادسة " له ، وأخذت تكافح معه ومن أجله كل حجب الظلام » .

•••

وقد قص علينا الدكتور طه فيما بعد قصة هذا الزواج وملابساته ، وعوامل حبه لسوزان ، وما كان من وراء هـــذا الحب ، بهذه الصورة الأدبية التى تعد من أجمل قطع أدب الاعترافات لهذه الفترة من حياة الكاتب .

قال الأديب العظيم :

« كان ذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر أيار ١٩١٥ فى مدينة

ونبليه فى وقت يقع بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ويقع كذلك بين عاصفتين عنيفتين من هذه العواصف التى تثور فى بعض المدن الفرنسية حين يتقدم الربيع وتبدو طلائع الصيف فتجمع فى السماء سحباً ثقالا كثافاً، ثم تبعث فى الجو ما شاء الله من برق خاطف ورعد قاصف . ثم تفتح أفواه القرب فتصب الماء على الأرض صباً ثم تصفو السماء وينجلى الجو وتستقر الأشياء ويتحدث الناس عن شدة العاصفة وغزارة المطر ويستعدون لعاصفة أخرى شديدة ومطر آخر غزير .

فى هذا الوقت ، وبين هاتين العاصفتين طرق باب غرفتى ، وكنت أنتظر أن يطرق ، وكنت أخشى أن تحول العاصفة بينى وبين ما كنت أنتظر . ثم فتح الباب ودخلت منه فتاة تصحبها أمها فسلمتْ فى استحياء وسلمتُ فى استحياء وأخذنا فيما كنا قد التقينا له من حديث .

ولم يكن حديثنا طويلا ولا متبسطاً ولا متوعاً ولا طلقاً وإنما كان مقيداً أشد التقييد . كنت أول أجنبى تراه هذه الفتاة ؛ وكانت أول فتاة تزورنى ، فلم يكن سبيل إلى أن يسهل بيننا الحديث فضلا عن أن يختلف ويتنوع ، ولكنه على كل حال كان حديثاً له ما بعده ملأ قلبى غبطة وبهجة وحبوراً وأملا نظمنا به مواعيد نلتقى فيها إذا كان المساء من كل يوم فنقرأ

ما شاء الله أن نقرأ من أدب وفلسفة وتاريخ ، وإنى لأكذب
القارئ إن زعمت له أنى نمت فى تلك الليلة نوماً هادئاً مريحاً. وإنى
لأصدق القارئ أن أنبأته بأنى قد اتخذت هذا اليوم عيداً أحيي
فى كل عام مهما تكن الظروف ، ومهما تكن الخطوب. واتصل
لقاؤنا شهرين كاملين فى المساء من كل يوم نقرأ الأدب الفرنسي
فى القرن السابع عشر، ونتحدث أحياناً. ولست أدرى أى الأمرين
كان أحب إلى وأحسن موقعاً فى نفسى – القراءة أم الحديث ؟

ولم ينقض هذان الشهران حتى كان بين هذه الفتاة وبيني
ود عقلى خالص قوامه حب هذا الأدب الذى كنا نقرؤه والذى
كانت تفسره لى وتدلنى على مواضع الحسن فيه .

ثم مضى بها الصيف إلى حيث يصطاف الفرنسيون من أعالى
الجبل وسواحل البحر ، وبقيت أنا فى هذه المدينة أقرأ الأدب
الفرنسى مع غير هذه الفتاة ، ولكن لم أكن أسمع صوت
قارئتى وإنما كنت أسمع صوت صديقتى ، وكانت الكتب
بيننا متصلة فكثيراً ما كنت أستبق بعض ما يعرض لى من
المشكلات فيا أقرأ لأسألها عنه ، وما كنت أجد الرضا إلا
فيا كانت تجيبنى به .

ثم يريد الله أن أعود إلى مصر يائساً ، وأن تذهب هى إلى
باريس ولكن الكتب تتصل بيننا على ذلك . ويظهر أثر ما كنت

أجد من الحزن واليأس فيما كنت أكتب من الفصول أثناء تلك الأشهر الثلاثة التى قضيتها فى القاهرة غريباً بأصح معانى الكلمة وأدقها بين أهلى وأصدقائى من المصريين .

ثم تتاح لى العودة إلى فرنسا فإذا أنا أعدل عن مونبليه إلى باريس لأن السوربون فى باريس ، ولأن سوزان فى باريس أيضاً .

والله وحده يعلم مقدار ما ملأ قلبى من الغبطة والرضا حين بلغت مدينة نابولى فوجدت منها كتابين قرأهما علىّ صاحبى الدكتور أحمد ضيف مرة ومرة ومرة حتى إذا سئم القراءة وكره أن ننفق فيها هذه الساعات التى قدرلنا أن ننفقها فى نابولى ردّ إلى كتابى وأكرهنى على الخروج .

ثم أبلغ باريس وألقى صديقتى . وشهد الله ما افترقنا بعد هذا اللقاء إلا كارهين – كنا نلتقى إذا أصبحنا ، ونلتقى إذا أمسينا ، ونقضى معاً شطراً من الليل فى صحبة أمها وأختها لأنى اخترت المقام فى أسرتها ولم يكن يفرق بيننا إلا الدروس التى كنا نختلف إليها ، وما أكثر ما كنا نلتقى بين درسين فى هذين العامين من سنة ١٩١٦ إلى أواخر سنة ١٩١٧ . كانت صديقتى أستاذاً لى . عليها تعلمت الفرنسية وفقهت ما أستطيع أن أفقهه من أدبها ، وعليها تعلمت اللاتينية واستطعت أن أجوز فيها امتحان

الليسانس ، ومعها درست اليونانية . واستطعنا أن نقرأ معاً بعض آثار أفلاطون ، على أنى قضيت من عام ١٩١٦ أشهراً ليس بينى وبين صـــديقتى إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق ، ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسى. وما أظن أنك تطمع منى فى أن أصور لك ما كان يثير هـــذا الحب فى قلبى من عاطفة ، وما كان يذود عنى من نوم ، وما كان ينغّص علىّ من راحة ، وما كان يضيع علىّ من درس .

لقد كنت أسمع صوتها وهى تقرأ لى أو تتحدث إلى فأشغل بهذا الصوت عما كان يحمل إلى من الألفاظ وعما كانت تدل عليه هذه الألفاظ من معان ، ولو أن سائلا سألنى فى وقت من هذه الأوقات عما سمعت أو عما وعيت لما استطعت أن أجيب إلا بأنى سمعت أجمل الموسيقى وأعذبها ، ولو أن سائلا سألنى عما وعيته من هـــذه الموسيقى الجميلة العذبة لما استطعت أن أجيب إلا بأنى أحب مصدرها . ولكن أحـــداً لم يكن يسألنى فلم أكن فى حاجة إلى أن أجيب إنما كنت أسأل نفسى وأجيب نفسى وأغتبط بما كنت أجد من سعادة ، ولا أحفل بما كنت أضيع من وقت ودرس ، ثم يأبى هذا الحب إلا أن يعلن نفسه ولكن لا يلقى صدى إلا أن يكون هذا الصدى رفقاً وعطفاً وإشفاقاً ، والحب لا يسأم ولا يملّ ولا يعرف الفتور

ولا يخاف الإخفاق ولكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه . وقد ألحّ حبى وأسرف فى الإلحاح ، واضطرت صديقتى إلى أن نفترق فتركتنى فى باريس ومضت هى إلى الجنوب مع الصيف.

فيا لها أسابيع تلك التى قضيتها فى باريس لم أعرف فيها راحة ولا نعمة ولا أمناً ولا هدوءً ، والكتب مع ذلك متصلة بيننا . ثم ينتهى إلىّ كتاب منها تدعونى فيه إلى أن ألحق بها حيث تقيم . إنه الرضا إذن ، وإنه الفوز ، وإنه فصل من فصول الحياة يختم وفصل آخر يبتدئ . أحبب إلىّ بهذه القرية الريفية من قرى الجنوب فى سفح البرانس ، هنالك أعلنت خطبتنا فى مساء يوم من الأيام ، فلما أصبحنا بدأنا ندرس معاً مقدمة ابن خلدون ، ونستعد معاً لتهيئة الرسالة التى سأتقدم بها لامتحان الدكتوراه .

وقضينا عاماً كاملا خطيبين صـــديقين ندرس الأدب والفلسفة والتاريخ واللاتينية ، ولا نستطيع أن نفكر فى الزواج ، فلم يكن بد من إذن الجامعة ولم يكن سبيل إلى طلب هذا الإذن حيث يثبت للجامعة أنى لا أنفق أياماً فى فرنسا عابثاً ولا لاعباً . والله يشهد ما عبثت وما لعبت ، والذين عرفونى فى فرنسا من المصريين يشهدون ما عبثت وما لعبت ، والله يشهد ما عرفت فى حياتى كلها وقتاً ملأه الجد الذى لا جد بعـــده ، والطهر الذى لا طهر بعده ، والنقاء الذى لا نقاء بعده كهذين العامين

اللذين قضيتهما فى باريس أثناء العمل ، وفى الجنوب أثناء الصيف .

وأى جد يشبه هذا الجد الذى يحمل الخطيبين على أن يجتمعا إذا أصبحا ليقرآ فلسفة أغوست كونت . أو ينغمسا فى تاريخ اليونان والرومان . أو يغرقا فى آثار تاسيت وتتليف وهرودوت ؟ ومع ذلك فعلى هذا النحو قضيت مع صديقتى عامين . ولقد كنا نخرج للنزهة فى بعض ضواحى باريس . ولقد كنا نمعن فى المشى فى بعض الغابات حتى إذا خلا لنا المكان وتخيرنا مجلساً جميلا حلواً يصفو فيه الحديث بين المحبين جلسنا فتحدثنا فى بعض آمالنا . ثم فتحنا كتاباً من هذه الكتب التى هى أبعد الأشياء عن الحب وجوّه فانغمسنا فيه سعيدين . وفى سنة ١٩١٧ استطعنا أن نظفر بالليسانس — واستطعت أن أستأذن الجامعة فى الزواج . واستطاعت الجامعة أن تأذن لى ، فقد كنت أول عضو من أعضاء بعثتها ظفر بإجازة الليسانس فى الآداب . . وفى اليوم التاسع من آب ١٩١٧ حين أوشك النهار أن ينتصف أتم الله نعمته علىّ وجعل لى من سوزان ، كما قلت فى تصدير بعض كتبى : " نوراً بعد ظلمة . وأنساً بعد وحشة . ونعمة بعد بؤس " . . .

ورجع إلى مصر لا مع سوزان وحدها كما يرجع أكثر

الطلاب الشرقيين مزهوين بزواج تعيس . بل رجع مع سوزان يحمل أرفع الشهادات – يحمل الليسانس وقد نالها سنة ١٩١٧ والدكتوراه وقد نالها سنة ١٩١٨ ، ودبلوم الدراسة العليا في التاريخ القديم ودراسة اللاتينية واليونانية التي نالها ١٩١٩ ، عدا اللغة الفرنسية التي حذقها كأبنائها .

٧

أحب الدكتور طه ، وهو فى باريس ، أن يقدم إلى مصر ثمرة جديدة من ثمرات جهده وذكائه . فمن يأتى بعد أبي العلاء ؟ لقد استعرض الشخصيات الفذة فى تاريخ العرب الفكرى ، فرأى أمامه ثبتاً طويلا بالأسماء كان ابن خلدون ألمعهم وأقربهم إلى نفسه . فعكف ، فى باريس ، يدرس حياته وآراءه ونزعاته ، وما زال حتى كتب رسالته الجامعية — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية — كتبها بالفرنسية سنة ١٩١٧ ونال بها الدكتوراه من السربون بتفوق باهر ، وقد منحته « الكوليج دى فرانس » جائزة « سنتور » المعروفة .

وليس بالأمر السهل أن يغوص طالب أزهرى درس الفرنسية وهو شاب ، وفى مدرسة خاصة — إلى أعماق حياة ابن خلدون يستجلى نظرياته الفلسفية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ويكتب حولها رسالة جامعية بالفرنسية تنال أعظم تقدير من أساتذة السربون — ليس هذا بالسهل على طالب أزهرى . . ولكن لا شىء بالنسبة لألمعية طه حسين الذى كان فى حياته الدراسية رمزاً للدأب والصبر والذكاء .

وقد كان لظهور هذه الرسالة أثره فى مصر ، واعتبرتها الأوساط الأدبية أول بحث علمى منظم كتب عن ابن خلدون ، كما كانت رسالته عن « ذكرى أبى العلاء » أول بحث علمى منظم كتب عن ذلك الشاعر .

وإنه لمن دواعى الاعتزاز بالعقلية الشرقية أن يقدم شاب فى أواخر العقد الثالث من عمره ، وفى تلك الفترة ، على معالجة قضايا فى فلسفة الاجتماع كتبها مؤرخ عربى قبل ستة قرون فيبرزها بلغة غير لغته فى صورة تحوز رضا أساتذته ويظفر بأكبر شهادة من جامعة السربون .

وطه حسين ، إلى اعتداده بنفسه ، يبدو جم التواضع ، فحين أملى هذه الرسالة أحب أن يعتذر عن أسلوبه الفرنسى فكتب فى مقدمة الرسالة يقول :

« وليسمح لى بأن أعتذر عن أسلوبى الفرنسى إذا ما بدا ، بلا ريب ، فى كثير من المواضع ركيكاً أو خاطئاً . . وكذلك عن الأغلاط المطبعية التى قد تقع فى هذه الرسالة فما كنت إلا غريباً وأعمى ! . . »

• • •

لقد أحب طه حسين ابن خلدون كما أحب أبا العلاء . .

وإنه ليكشف لنا عن عوامل هذا الحب بالكلمة التمهيدية التى قدم بها رسالته بقوله :

« يحتفظ تاريخ الآداب العربية منذ عصر الجاهلية إلى عصرنا هذا بذكر رجلين يمتاز كل منهما بابتكار خارق لم يتصف به أحد من المسلمين أساتذة كانوا أم تلامذة . . أولهما أبو العلاء المعرى الذى استحدث فى أدبنا صنفين لم ينسج مثلهما منذ عهده . فقد استعرض فى مجموعة شعرية اسمها " اللزوميات " فلسفة باهرة تفيض زهداً وتشاؤماً حتى قيل إنه لوكريس العرب ، وتخيل لنا فى شبه قصة اسمها " رسالة الغفران " التى تذكرنا قراءتها بالكوميديا الإلهية — رحلة إلى العالم الآخر وصف لنا فيها الجنة والنعيم وصفاً قوياً رائعاً .

أما عمل الثانى : فطبيعته تخالف عمل الأول تمام الخلاف ، وقد لا يجب أن نصفها بالعبقرية . كان ابن خلدون عقلية عملية ، لم تمكنه حياته الدبلوماسية ، التى مزجت أيما امتزاج بالدسائس والمصاعب السياسية ، من أن يطيل التأمل فى نفسه أو فى الحياة الأخرى ، على أنه استخرج من تلك الحياة ذاتها ، ومن دراسته لتاريخ الإسلام ومختلف النظريات الفلسفية التى عرفها المسلمون دراسة عميقة مستفيضة — فلسفة جديدة موضوعها : المجتمع وتاريخه » .

وقد عرض طه حسين آراء ابن خلدون وفلسفته ونظراته فى الحياة والمجتمع — آراءه فى الظواهر الاجتماعية للحياة البدوية والخواص العامة لحياة الحضر.. وهو فى عرضه لآراء ابن خلدون ومذهبه السياسى والاجتماعى كان يناقش المؤرخ بتؤدة حيناً. وبصرامة حيناً آخر.. وما يزال حتى يستخلص الفكرة التى تبدو له صحيحة على ضوء مختلف المذاهب الفلسفية والقيم الأخلاقية وشتى النزعات الاجتماعية لعصره. فمن أمثلة ذلك: رأى ابن خلدون بالعرب — ذلك الرأى الذى يقول فيه إن العرب ليسوا أهلا لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر دينى قوى، وإنهم يجهلون سياسة الملك ... إلى غير ذلك مما جاء استطراداً فى مقدمته. وقد ناقش طه حسين هذا الرأى فى صلب رسالته الجامعية مناقشة علمية هادئة دحضت آراء المؤرخ الكبير.. ومن كلماته فى هذا الصدد، بعد أن عرض لفكرة ابن خلدون، قوله:

« ليس لنا أن ندخل فى تفاصيل الإصلاحات القيمة التى استحدثتها حكومات الخلفاء الراشدين والأمويين وبنى العباس. على أنه من المحقق أن العرب من بين جميع الأمم التى قبضت على ناصية الحكم فى الدولة الإسلامية فى العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولى حكمها. وأمهر من

عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلى والمادى . وليس لنا إلا أن نقارن النتائج التى ترتبت على حكم الترك والعرب فى بلاد المشرق حتى نقرر أن العرب ما فعلوا سوى أن شادوا وعمروا . وأن الترك مافعلوا سوى أن أبادوا وخربوا » .

وانتهى إلى أبعد من هذا ، فرأى فى المذهب الذى اعتمده ابن خلدون لدراسة التاريخ نهاية التزمت والضيق فقال :

« ألا يكفى ابن خلدون أن تلك القبائل البدوية التى خرجت من القفار والتى كانت حتى خروجها بعيدة عن كل مجتمع متمدن قد وصلت إلى أن تفرض دينها ولغتها على قسم عظيم جداً من العالم الرومانى الفارسى القديم. فيحكم عليها بأعدل مما فعل ، وربما بشىء من شكر الصنيعة ، وإذا كان ابن خلدون لم يفهم بأحسن مما فهم أن الحضارة التى تمتع بها هى من صنع العرب ، فلا ريب أن ذلك لأن المذهب الذى يدرس به التاريخ ضيق جداً ! »

ولا يتسع المجال لأن نسرد الكثير من آراء طه حسين فى نقد ابن خلدون ، ولكن حسبنا القول إن إعجاب طه حسين بعبقرية المؤرخ الفذ لم يمنعه ، كعالم يدرس نظرية مؤرخ عالم ، أن يناقشها وينقدها . وقد جئت بهذا الاستطراد الطويل

لأدحض هذه الفكرة التى يلوكها « الشعوبيون » عن العرب ، ويستندون فيها إلى رأى ابن خلدون الذى فنده طه حسين ، ولأنفى عن طه حسين ، من جهة ثانية ، هذه الفكرة الخاطئة التى عاشت فى عقول البعض ، فترة ما ، عن فرعونية طه حسين وكرهه للعرب ! !

وبعد فقد كدت أخرج ، بهذا الاستطراد ، عما أنا بصدده . .

فلأقف عند هذا الحد ، إذ لا أريد أن أتحدث عن كتابه الثانى « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » أكثر مما تحدثت ، فحسبى القول إن هذه الرسالة كتبها طه حسين فى فجر شبابه ، وكان لها ، بعد أن ترجمها الأستاذ عنان إلى العربية ، نفس الأثر الذى كان للرسالة الأولى ، سواء فى المحيط الجامعى أم فى الأوساط الأدبية .

٨

إننا مع طه حسين . وهو فى الثلاثين من عمره ، وقد بدأ حياته الأدبية بداية حسنة ، أصدر كتابين كان لهما أثرهما البليغ فى نفوس القراء . . وظل ، بعد أن فاز بدكتوراه الأدب من السربون ، يقرأ الفرنسية واللاتينية ويتعمق بدراسة أدبهما إلى أن ملك ناصيتهما وعاد إلى وطنه ممتلئاً بالآمال ، وكان بين أفراد البعثة الوحيد الذى لم يخيّب ظن أساتذته .

• • •

عاد من فرنسا ممتلئة نفسه بالمعرفة ، وقد حرص أن يفرغ كل ما وسعه فهمه وعقله وذوقه وحسه إلى أبناء وطنه . لقد اختير تلميذ الجامعة القديمة للتدريس فيها . . ومَن أليق منه لإشغال هذا المنصب . . وبدأ يدرس التاريخ اليونانى القديم . وكانت الجامعة فى بدء تكوينها . . وكان أكثر تلامذتها ممن صهروا فى بوتقة هذه الدراسات المحدودة ذات المناهج العتيقة . وأراد الدكتور أن تحذو الجامعة فى نهجها حذو جامعات الغرب ، فلم يكد يبدأ هذا النحو الجديد ويفرض على تلامذته دراسة التاريخ اليونانى حتى رضى قوم وسخط آخرون . .

« وكان الذين رضوا أقل الناس عدداً ، والساخطون أكثرهم جمعاً وأضخمهم جمهوراً . . قالوا : ما لنا ولتاريخ اليونان ، ندرسه ونحفل به ، ننفق فيه ما نملك من وقت ، ونضيع فى سبيله ما عندنا من قوة وجهد ، ونحن إلى إنفاق ذلك الوقت ، وهذه القوة والجهد فى درس تاريخ مصر خاصة ، والأمم الإسلامية عامة أشد ما نكون حاجة ! . .

وما شك الدكتور طه بذلك . . ولكن قال لهم هل يمنع هذا أن ندرس تاريخ اليونان القديمة . بل ذهب إلى أبعد من هذا حين قال إن فهم التاريخ المصرى خاصة والتاريخ الإسلامى عامة موقوف على فهم التاريخ اليونانى ، فما ينبغى لأحد أن ينسى ما كان للحضارة اليونانية من التأثير الظاهر فى حضارة العالم كله ، ومنه البلاد الإسلامية ، ولم يكن هذا التأثير مقصوراً على الحياة العقلية والأدبية بل تناول الحياة السياسية ، فإن اليونان قد ملكوا الشرق أكثر من قرنين فوضعوا فيه نظماً لم يكن له بها عهد ، وجاء الرومان فلم يمحوا هذه النظم ، ثم جاء العرب فأخذوا ما وجدوا ، ولم يزيدوا على أن عربوه ، ومن الميسور على كل مؤرخ متقن لعمله ، إذا درس تاريخ الأمم الإسلامية أن يتميز النظم القديمة وما بينها وبين النظم الإسلامية من صلة . وإذا كان درس التاريخ فى رأى المؤرخين المحدثين عملا تحليلياً قبل

كل شيء ، أى أنه يلزم المؤرخ أن يرد كل شيء إلى أصوله التى ألفته وعملت على تكوينه ، فلاشك أن مؤرخ الأمم الإسلامية ولا سيما مصر ، يجب عليه أن يعرف تاريخ الأمة اليونانية ويتقنه ، لكى يستطيع أن يميز ما كان لها من أثر فى حياتها العقلية والاجتماعية والسياسية .

– بهذا الأسلوب الرائع حبب الدكتور طه حسين إلى تلامذته دراسة التاريخ اليونانى ، وما لبث أن قدم إلى قراء العربية نماذج مختارة من الشعر التمثيلى ، ثم من الأدب التمثيلى عند اليونان – نقل إليهم ألواناً مختلفة من التراجيديا ، وألواناً من الكوميديا لإيسكولوس وسوفوكليس – عدا محاضراته التاريخية الممتعة التى نشرت فى صحيفة « الجامعة المصرية » القديمة ، وعدا كتابه « نظام اللاتينيين » الذى ترجمه عن أرسطاطاليس ، ذلك الكتاب الثمين الذى استكشف فى مصر سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ، ثم نقل إلى المتحف البريطانى فى لندن ، ثم طبع فى لندن وباريس وغيرهما كما ترجم إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية من اللغات الحديثة ، وظلت لغة الضاد محرومة منه إلى أن جاء طه حسين فنقله إلى العربية ، وبذلك أسدى أكبر خدمة لرجال الفكر والقضاء .

وهكذا ، فقد فتح الدكتور طه باب الدراسات اليونانية

علي مصراعيه فولجه الكثيرون ، وقدم لنا تلاميذه نماذج حية من هذا الأدب الرفيع الذى كان يعتبره غوته شاعر الألمان الأكبر ، ركيزة الدراسات الأدبية كلها . ومن قوله عن هذا الأدب : ادرسوا موليير ، وادرسوا شكسبير . ولكن قبل كل شيء ادرسوا الإغريق القدماء . . دائماً الإغريق . . وهذا ما أراده الدكتور طه حسين حين وجه تلامذته إلى دراسة تاريخ هذا الشعب ، بل ذهب إلى أبعد من هذا — إلى ضرورة تدريس اللغة اللاتينية واليونانية فى المدارس الثانوية .

اثنان من أدباء العرب المعاصرين عرفا قيمة هذا الأدب : سليمان البستانى بترجمته إلياذة هوميروس وطه حسين فى توجيهاته وتعريبه طائفة من نماذج هذا الأدب.

٩

لم يشأ الدكتور طه أن يحصر نشاطه فى البيئة الجامعية ، بل توزع هذا النشاط على الصحف والمجلات وعلى دور النشر وندوات الفكر، وتولى فى عام ١٩٢٢ تحرير الصحيفة الأدبية لجريدة « السياسة » . وكانت لعهدها من أقوى وأرقى صحف مصر ، ضمت إلى هيئة تحريرها صفوة من أكابر رجالات الفكر وأساطين الساسة وزعماء المدرسة الحديثة ، وأخذ الدكتور طه ينشر كل يوم أربعاء بحثاً ممتعاً من بحوثه الرائعة فى الأدب العربى — أدب الأمويين والعباسيين ، وكل يوم أحد قصة ملخصة عن أدب الغرب . وقد أثارت بحوثه ، ولا سيما بحوث الأدب العربى ، ثائرة رجال الأدب ، لا بروعة المباحث وجدتها فحسب ، بل بالآراء الجريئة التى كان يرسلها والتى كانت تميط اللثام عن حقيقة الحياة السياسية والاجتماعية للعصر الذى درسه ، ثم بإثارته معركة القديم والحديث فى الأدب . هذه المعركة التى كانت بداية الانتفاض والبعث الأدبى . نعم ، لقد أثار الدكتور طه ثائرة القدماء حين أعلن أن العصر الذى انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت

فيه الدولة العباسية هو عصر شك وعبث ومجون . . أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته .

كيف يجرؤ طه حسين على هذا القول وقد اعتادوا أن يُضفوا صفة القداسة على كل ما هو قديم ؟ !

إنه لم يعبأ بأقاويلهم وبهذا الإيمان الذى عاشوا فى صميمه معصوبى العيون . لقد انتهى إلى أن العصر الذى أعقب انحلال الدولة الأموية عصر شك وعبث ومجون ، وعلى ضوء هـذه النظرية أو هذه الفكرة أخذ يبحث حياة الشعراء الماجنين . . وما كادت بحوثه تظهر ويتهافت عليها القراء حتى أخذ القدماء يردّون عليه ردوداً طويلة خلاصتها أنه لايصح أن يتخذ هؤلاء الشعراء صورة لذلك العصر . . وهنا كان جواب طه حسين أن نظرته ، فى فهم التاريخ ، تختلف عنهم كل الاختلاف . فهم يريدون أن يسبغوا على التاريخ الإسلامى صفة الجلال والتقديس الدينى أو الذى يشبه الدينى — تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح . فهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ويرفعونهم عن صغائرها ؛ وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد . . فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، وأما

النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون اليه .

وانتهى إلى أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما ... وأن الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية ربما كانت أحق من غيرها بأن تدرس ويعنى بها الباحثون ، وما كان لأي إنسان يقدر العلم وكرامته أن يغير التاريخ أو يظهر عصراً من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه !

• • •

طرح هذه النظرية الجديدة التي اعتمدها في كتابة تاريخنا الأدبي ، ولم يلتفت إلى نقد القدامى من شيوخ الأدب ، ومضى يؤرخ بطريقته التحليلية ذلك العصر بمختلف ظواهره الأدبية والاجتماعية والسياسية .. وقد جمعت هذه الفصول فيما بعد في كتاب أسماه « حديث الأربعاء » ، وهو في ثلاثة أجزاء ضم بحوثاً طلية مبتكرة عن شعراء العصر الجاهلي . وشعراء العصرين الأموي والعباسي ، ولا سيما الشعراء

الغزلين ، مع بحوث عن بعض الأدباء والشعراء المعاصرين. وقد صب الدكتور طه فى هذه الفصول الكثير من آرائه الجريئة فى طبيعة الأدب العربى ففتح للأدباء الباحثين منافذ جديدة كانت موصدة . . ولا أسرف إذا قلت إن منهجه هو المنهج الذى اتبعه الأدباء فى دراساتهم الأدبية وما زالوا لا فى مصر وحدها بل فى جميع البلاد العربية .

• • •

وقد كان للقراء من محصول مقالاته التى كان ينشرها على صفحات « السياسة » يوم الأحد كتاب « قصص تمثيلية » . . وقد عمد فى عرض هذه القصص إلى التلخيص . . وطريقته فى التلخيص أن يغوص إلى أعماق الفكرة التى أرادها الكاتب من قصته . فبعد أن يهضمها هضماً جيداً يناقشها مناقشة أدبية مثيرة . ثم يعرض خطوطها البــارزة ونقاطها الدقيقة وصورها المتباينة ورأى النقاد فيها حتى إذا تملى القارئ الفكرة ساق إليه مشاهد الرواية وفصولها وما يزال حتى يكشف روح الكاتب وفكرته وسخريته وفلسفته وما شئت من عوالم فياضة بحيث لاينتهى القارئ من تلاوتها إلا وقد اكتسب متعة وفائدة معاً . وقد قدم للقارئ العربى أكثر من كتاب ضم هذه التلخيصات ، وقد نعود إليها فى صدر كلامنا عن ثبت مؤلفاته .

١٠

نحن فى عام ١٩٢٥ وقد أصبحت لطه حسين مكانته الكبرى ، وأصبحت دور النشر ومختلف المعاهد تتهافت على مقالاته وكتبه ومحاضراته . وهو كالفيض يمدّ الجميع بسيل من معين عبقريته ، أو كالزر الكهربائى – وهذا التعبير للدكتور هيكل ، وقد سمعته منه فى إحدى الجلسات الأدبية – لا تكاد تضغط عليــه حتى يشع إشعاعه الباهر . نعم ، هو كالفيض وما أشبهه بصنوه أبى العلاء المعرى الذى كان يملى الآيات البينات دون أن يرجع إلى النصوص والكتب . وهذا الذى أثار دهشة ابن القارح حين أعلن فرط إعجابه ودهشته بما سمعه من رسائله وبدائعه التى أملاهــا بلا توقف ، وهى – فيما يرى – تستكثر على من يكتب ، بَلْهَ مَنْ يُملى ، وهى لو صدرت – كما يقول ابن القارح – عن رجل عازق فى خزائن كتبه ومراجعه يقلب فى هذا ويرجع إلى هذا لكانت آية معجزة ، لأن القلم لسان اليد ، وأحد البلاغتين كما يقولون ، فكيف بمن يبتكر

روائعها ويمليها ويحل مستغلقها بديهاً ، ويبدع آياتها ارتجالا ، ويمليها من فوره مقالا !

قال : « ووالله لقد رأيت علماء منهم ابن خالويه إذا قرئت عليهم الكتب ، ولا سيما الأسفار الضخمة منها ، أقبلوا على مراجعهم يلوذون بها مستعصمين ، ويرجعون إليها مقابلين ، احترازاً من الوقوع فى خطأ مبعثه النسيان أو تصحيف ناسخ أو غلط واهم ، ولا كذلك أبو العلاء ، فهو يستلهم أبداً جنانه المتثبت اليقظ ، ويستعين دائماً بحافظته الواعية ، وذاكرته الجبارة التى لا تعرف الوهن ، ولا يسمو بها النسيان » .

وطه حسين كصنوه أبى العلاء فى هذا المضمار . . إنه كالفيض . . وقد كان إلى كتابته المستمرة فى الصحف والمجلات ، وإلى إصداره الكتب ، يتابع دروسه فى الجامعة ، وقد كثر عدد تلامذته وقويت أركان مدرسته .

وتمرّ بمصر أزمات مختلفة — أزمات سياسية حادّة ، وللدكتور طه رأيه الصريح فى هذه الأزمات . . ولكنه كرجل جامعى كان يعتصم بصمته ويعمد أن يظل فى معزل عن هـــذه التيارات . . لا يعلن رأيه إلا فى شئون الفكر وقضايا الأدب ، وتقتضيه الدراسة الجامعية أن يعرض إلى الشعر الجاهلى . . وطريقته فى البحث تختلف ، كما أشرنا ، كل الاختلاف

عن طرائق من سبقه من أساتذة الأدب ، ولا سيما أنه عاش هذه الفترة اليقظة من حياته الفكرية فى محيط جامعى . . ومن تقاليد الجامعات أن تأخذ البحوث الأدبية والدراسات العلمية طابع البحث الحر . . وسار فى نهجه يدرس النصوص ويبحثها دراسة ناقد بصير . ونهجه فى البحث الأدبى أن يكون العقل العربى متحرراً من كل الرواسب والعفونات . . وأن يصل ببحوثه إلى نتائج يقرها العقل ويرضى عنها الفكر المتحرر . وأثمرت هذه الدروس كتابه « فى الشعر الجاهلى » . وشاع أمر هذا الكتاب — شاع ما فيه من آراء اعتبرت منافية لروح الدين . . واستغل خصوم طه — وما أكثر خصوم الموهوبين — استغلوا ما جاء فى الكتاب من آراء عدوها زندقة وهرطقة ! . . استغلته الحزبية ، واستغله الرجعيون . . وثارت مصر على طه حسين ، وانقسم الناس فريقين : فريقاً معه ، وهم صفوة المفكرين ؛ وفريقاً عليه وهم الكثرة المطلقة من مختلف الطبقات . . وقد تزعم هذه الحركة حماة الدين أو علماء الجامع الأزهر ، فاجتمعوا وقرروا — وأكثرهم لم يقرأ الكتاب — قرروا أن فى كتاب الدكتور طه كفراً صريحاً ، وطالبوا الحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه عن التدريس كيلا يفتن نابتة الأمة بما يبثه فيها من أضاليل !

وماذا فى الكتاب ؟

إننا لانريد أن نعيد سرد تلك القصة الطويلة ، ذات الذيول المعقدة التى أثارهـا خصوم طه حسين ـ خصومه الحزبيون الذين اختبأوا وراء الرجعيين من رجال الدين ! .. لا .. لانريد أن نسرد تلك القصة الطويلة التى تمس حرية الفكر فى الصميم . ولكن الأمانة التاريخية تقتضينا ، ونحن نشير إلى ملامح من حياته الفكرية ، أن نمر بجو تلك العاصفة ، لأن فى عدم التعرض لهذه الأزمة الحادة ما يترك فجوة كبيرة فى حياته الأدبية .

• • •

حين بدأ الدكتور طه دراسته الأدبية فى الجامعة المصرية ، أراد أن يؤرخ الأدب العربى تأريخاً جديداً ، أى أراد أن يبدأ من الأساس ، وأن ينسف جذور تلك الطرق المعوجة التى اعتمدها من سبقه من مدرسى الأدب .. ويبدأ بالشعر الجاهلى ؛ وما كاد يتوغل بدراسة هذا الشعر حتى شك فى قيمته . وكان هذا الشك نتيجة بحث طويل وتفكير عميق وقراءة مستمرة وتدبر فى ألفاظه ومعانيه ؛ وما زال يقرأ ويحفظ ويقايس ويخرج الأصيل من الدخيل حتى انتهى به البحث إلى أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من

الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح هو عنده قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى . وأن أكثر ما نقرأه من شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء فى شىء وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين .

عرض هذه النظرية ثم أخذ يسوق الحجة تلو الحجة من النواحى التاريخية واللغوية والفنية ليؤكد نظريته التى تنتهى به إلى أن هذا الشعر لا يمكن أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن .

وقد درس موضوعه بهذا النهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت ، أى أراد أن يشك ليصل إلى اليقين ، وقادته هذه الشكوك إلى أن يحطم كل الأسانيد التى لا يقبلها منطق العلم الحديث .

وما كان البحث بذاته ، ليثير هذه الضجة الكبرى لو لم

يستغل خصومه جملة جاءت استطراداً فى صلب البحث الذى عقده عن الشعر العربى واللغة ، وعن القحطانية والعدنانية . والعرب البائدة والمستعربة ، والخلاف الجوهرى بين اللغة التى كان يصطنعها الناس فى جنوب البلاد العربية واللغة التى كانوا يصطنعونها فى شمالى هذه البلاد . وقد ساق أكثر من حجة على صدق نظريته التى انتهت به إلى أن هــذا الشعر الذى يسمونه « الجاهلى » لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأنه وجد بين الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلى قوماً ينتسبون إلى عرب اليمن — إلى هذه القحطانية العاربة التى كانت تتكلم لغة غير القرآن والتى أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية . . وإلى هنا . . فلا شىء يؤخذ عليه ، إلا أنه فى استطراده قال :

« إنه لا يكفى ، لكى نثبت من الوجهة العلمية وجود إبراهيم وابنه فى التــاريخ أن يكون اسماهما قد ذكرا فى التوراة والقرآن » . .

هذه الجملة وغيرها مما اقتضاه سياق البحث قد أثارت عليه ثائرة الأزهريين . . وقد رد على خصومه بأن قوله هذا لا يعنى أن إبراهيم لم يوجد قط كما نسب إليه القول كثيرون ممن لم يقرءوا كتابه . .

ولا أريد هنا أن آتى بالآراء التى جاءت فى صلب كتاب الدكتور طه ، ولا بردود خصومه ، فهمتى ، فى هذه الرسالة، أن أسجل ظاهرة من حياته الفكرية وما مر بها من ملابسات. ويكفى أن أقول إن الكتاب أثار ضجة كبيرة حين نشره . . وإن المطابع ، قد أخرجت ، فى السنة التالية لطبع الكتاب عشرات الكتب والرسائل فى الرد عليه ودحض آرائه أظهرها كتاب « تحت راية القرآن » للمرحوم مصطفى صادق الرافعى . و « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفى جمعة . و « نقد الشعر الجاهلى » للعلامة محمد فريد وجدى و « نقض الشعر الجاهلى » للأستاذ محمد الخضر حسين. و « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى مع مقدمة طويلة للمرحوم الأمير شكيب أرسلان . . وما لا أذكره من الكتب والرسائل وأكثرها غير ذى بال . .

ولم تقف المعركة عند هذه الردود العلمية والأدبية بل دخلتها السياسة لتقف إلى جانب خصوم طه حسين ، وكان من جراء الحملة المنظمة عليه أن اضطرمت ثورة شيوخ الأزهر ومن ورائهم البيئات الرجعية ، وخاف كبار المفكرين من رجالات مصر وأحرارها أن تنال الثورة من الجامعة المصرية وهى حديثة العهد بالميلاد .. لاسيما أنه لم يمض على إلحاقها بالحكومة المصرية

عام واحد . . وعبثاً حاول طه حسين أن يفهم خصومه أن شكه بالشعر لا يعنى شكه بقداسة الدين . وقد أنكر ما اتهموه به من شك فى الدين الإسـلامى ، فكتب إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . وكان من المنتظر أن تقف الحملة عند هذا الحد . . وأن تخمد نيران تلك الثورة التى نفخ فى ضرامها خصوم طه حسين الذى حطم تماثيل أدبهم الكاذب . ولكن الرجعية — رجعية الفكر ورجعية السياسة — وجدت فى إثارة هذه المسألة معاكسة حزب كان الدكتور طه ينتمى إليه . . وقامت أزمة وزارية ، ونشطت النيابة العامة بإيعاز من الحكومة وتحت ضغط الأزهر تحدد « جريمة » الدكتور طه حسين فى دين البلاد الرسمى . .

ولم تجد الجامعة المصرية ولم يجد الدكتور طه بداً من جمع نسخ الكتاب منعاً لتداوله خشية أن تودى ثورة الرجعية والرأى العام بالجامعة . .

• • •

شكت طه حسين على مضض . . فلم يرد على خصومه . . وكان فى سكوته مضطراً خشية أن يكون نزوله للميدان والرد

على معارضيه سبباً يمهـــد للرجعية أن تعبث بحرية الفكر
والتفكير . .

وكان ثروت باشا ، عضو مجلس إدارة الجامعة وأحد أقطاب
السياسة وثانى رجلين عرفتهما مصر فى تاريخها السياسى الحديث :
أريد بهما سعد وثروت — كان ثروت باشا قد طلب إلى الدكتور ط
أن يثبت للعاصفة حتى تمرّ بسلام ، وأن لا يجيب على خصومه
احتفاظاً بكرامة أستاذيته للجامعة وكرامة العلم الذى يمثله ، وحتى
لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان وأمام الرأى العام .
ونزولا عند هذه الرغبة سكت على مضض . وظلت الصحف
الحزبية والرجعية مدة طويلة تهاجمه هجوماً عنيفاً وهو فى ثورة من
الصمت الملتهب الذى كان يحرق نفسه ، وقد أطالت بعض
تلك الجرائد الكلام حتى أزعجت والد الدكتور طه ، فكان
يرسل إليه خطابات حزينة ينبع منها ، كما يقول زكى مبارك ،
الدمع فى الصخر الجلمود .

ومن الرسائل التى بعث بها الدكتور طه إلى والده هذه
الرسالة الصغيرة بكلماتها والكبيرة بمغزاها ومدلولها :

أبى

أنت أوصيتنى بأن لا أصدق كل ما أسمع ، وأنا أوصيك
بأن لا تصدق كل ما تقرأ .

لك من زوجتى ومنى أطيب التحيات .

طه حسين

وليس هذا فقط ، بل تلقى رسائل تهديد بقتله من بعض طغمة الرجعية فلم يعبأ بها . .

وأخيراً . . نزل عند رغبة أصدقائه وفى طليعتهم ثروت باشا وسافر إلى باريس ، إلى أن مرت العاصفة وخمدت نارها بعد أن ذهبت بكتاب « فى الشعر الجاهلى » ولكنها تركت لطه حسين شهرة لم يصل إليها كاتب معاصر من جميع كتاب العالم العربى .

• • •

على أن النقطة الحساسة التى عالجها طه حسين فى كتابه وأفادت الأدب العربى إفادة كبرى ليست شكه فى أكثرية الشعر الجاهلى ، ولا تعرضه لتلك النقطة الدينية الحساسة التى أقامت الدنيا عليه — دنيا الرجعية المتزمتة — بل هى التمهيد للحرية المطلقة أن تشيع فى البحوث الأدبية ، فقد دعا أدباء العربية إلى التحرر من كل المواضعات التى تقيدهم ، وطلب إليهم أن لا يتأثروا فى بحوثهم بأى مؤثر إلا الحرية ، لأنه يعتقد اعتقاداً صادقاً أنه لن توجد العلوم اللغوية الأدبية ، ولن تستقيم فنون الأدب إلا يوم تتحلل اللغة والأدب من التقديس ويباح لنا أن نخضعها للبحث كما نخضع المادة لتجارب العلماء . وقد وضع نظريته

هذه للجيل الصاعد . وسار فى طريقه يدرس الأدب العربى بهذا المنهج الذى هو منهج جميع الباحثين والمفكرين الأحرار .

وطويت ضجة كتاب « فى الشعر الجاهلى » بعد أن حُذِفَ منه فصلٌ ، وبعد أن زيدت عليه عدة فصول . . وصدر باسم « الأدب الجاهلى » . وهو يدرس اليوم فى جميع مدارس البلاد العربية كأساس لفهم الأدب ، والأدب الجاهلى بصورة خاصة — هذا الأدب الذى رسم الدكتور طه خطوطه الواضحة بهذا الكتاب العظيم الذى أصبح أشهر وأدق كتاب أدبى بين كتب الأدب العربية المعاصرة .

وليعذرنى القارئ إذا رآنى تحدثت طويلا عن كتاب « فى الشعر الجاهلى » . فقد تحدثت عنه مطولا للملابسات التى رافقت صدوره . وهى ملابسات انبثق عنها هذا الصراع الحاد بين مذهبين : بين القديم والحديث ، أو بين القدماء الذين ينكرون مذهب التطور فى الحياة ، وبين المجددين الذين يؤمنون بحرية البحث وحرية الفكر .

من شئون حياتى الخاصة ، وما كان يحيط بها فى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه . لقد تحدثت فيه عن الجامعة القديمة ، وعن سفرى إلى أوربا . وهى ذكريات أحبها وأوثرها . صنعت هذا الكتاب على أن ما فيه تخيلات مما يخطر فى مخيلات الكتاب . والحقيقة أنه ليس فيه شىء من التخيل ، بل هو مجموعة من الحقائق ، ولكن الناس معجبون بكتاب " الأيام " لا فى البلاد العربية فقط بل فى أوربا أيضاً ، وقد تلقيت أمس عقداً لترجمته من " النروج "؛ والناس معجبون أيضاً بكتاب " على هامش السيرة " وكتاب " مستقبل الثقافة " ... »

١٢

إن حياة الدكتور طه التى وددنا أن يؤرخها بقلمه تؤرخ نفسها بنفسها . . فقد برز إلى مسرح الحياة الفكرية واسمه بين أخذ ورد ، بين محب وقال ، بين معجب وكاره . . وقد كثر اللغط حوله ، فى تلك الفترة من حياته . . وأى لغط ؟ لغط الحشو بين المتحجرى العقول الذين كانوا ينالونه بمناسبة وبغير مناسبة . لقد أثار الأستاذ عبد الحميد سعيد فى البرلمان — وكان رحمه الله وغفر له من أئمة الرجعية فى مصر — أثار سنة ١٩٣٢ قضية كتاب « فى الشعر الجاهلى » من جديد . . وكان على رأس الحكم إسماعيل صدقى باشا ، وكان وزير المعارف حلمى عيسى باشا ، ولم تكن الأمور بينه وبين الدكتور طه على ما يرام لاختلاف وجهات نظرهما فى كثير من قضايا الفكر . . ومن جهة ثانية فقد كانت نزعة الدكتور طه السياسية تخالف نزعة الحكومة ، وأراد صدقى باشا أن يستخدم أدب الدكتور طه فى دعم سياسة حكومته . وأغراه براتب ضخم ليكتب المقال الرئيسى فى جريدة « الاتحاد » لسان حال الحكومة . فأبى ورأى فى ذلك

ما يتعارض وكرامته ونزعته السياسية . . وكان هذا الرفض من العوامل التى حدت الحكومة أن تدفع نوابها الرجعيين أن يثيروا فى البرلمان قضيته مرة ثانية ليؤلبوا عليه الرأى العام! وقد دفعوا الأزهر من جديد ليسند الحكومة بهذا الاتجاه فنقلوا طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف، ثم فصلوه من الوظيفة . . وهنا انقلبت الآية . . فوقف الرأى العام إلى جانبه ، ولا سيما حين علم أن سياسة الحكومة تريد أن تستخدم أدبه وقلمه فى مقاصدها . . وكان لحرمان الجامعة ، وهو عميد الأدب العربى ، من علمه أثره فى نفوس الطلاب ونفوس المفكرين على اختلاف وجهات نظرهم .

ومن الأمانة لتاريخ الفكر فى مصر أن نثبت هنا فقرات من أحاديثه إلى الصحفيين الذين هرعوا إليه يسألونه رأيه فى موقف صدقى باشا الذى أراد بفصله من الجامعة ومن الوزارة أن يحمى الإسلام من هذا الملحد !

قال الدكتور طه من حديث طويل غاية فى الطرافة والسخرية والهزء من صدقى باشا ومن شيخ الأزهر معاً :

« . . على أنى أريد أن أقف وقفة قصيرة جداً من شيخ الإسلام . . ومن حامى الإسلام . . فقد أصبح صدقى باشا حامى الإسلام منذ فصل طه حسين من الحكومة . . أريد

أن أقف معهما وقفة قصيرة لأسألهما عن حماية الإسلام هذه ما هى ؟ وكيف تكون ؟ وماذا يبلغان منها بفصل طه حسين من خدمة الحكومة ! فهما لن يمنعاه بهذا الفصل من أن يتكلم ، ولا من أن يكتب ، ولا من أن يكون له تلاميذ . . ولا من أن يلقى تلاميذه القدماء . . وإذن . . فما حمايتهما للإسلام . . وكيف يفهمانها . . وكيف يحققانها ؟ . . أهما يحميان الإسلام حقاً أم يرضيان شهوات خفية ؟

لقد قرأ صدقى باشا كتاب " الشعر الجاهلى " وكتاب " الأدب الجاهلى " وكان من المدافعين عنهما فى الأزمات الماضية . وهو الذى سعى وألحّ فى السعى لتعيين طه حسين عميداً لكلية الآداب . وسعى وألحّ فى السعى حين كان رئيساً لهذه الوزارة . . فما بال هذين الكتابين يروعان صدقى باشا . . لقد أعلن صدقى باشا لطه حسين حين التقيا أخيراً أنه فوجئ باستجواب عبد الحميد سعيد ، وطلب إلى طه حسين أن يدع له أمر هذا الاستجواب السخيف . . واستعمل هذا اللفظ . . فكيف انقلب هذا الاستجواب قيّماً بعد أن كان سخيفاً ؟ وكيف استحال صدقى باشا محامياً بعد أن كان منكراً لهذا الاستجواب ؟!

وقرأ شيخ الإسلام أو شيخ الجامع الأزهر هذين الكتابين

فيما يقول ، والله وحده يعلم ماذا فهم من هذين الكتابين وكيف فهم ؟ ولكنه على كل حال كان يلقى طه حسين ويتلطف له . ويبارك عليه ، ويستشيره فى كثير من أشياء الأزهر ، فكان يضمر شيئاً ويظهر شيئاً . . أم هو يؤمن ببعض الكتاب دون بعض ؟

إن حماية الإسلام لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة . . وإنما تكون بتحويل نظم الحكم كلها – بتحريم الربا وإغلاق المصارف ، ومنع الحكومة من أن تستفيد من أموالها فى البنك الأهلى وغيره من البنوك ، ومنعها من أن تبيح الخمر وتجبى عليها الضرائب ، ولعل مرتب الأستاذ الأكبر أن يكون بعضه من هذا الربا أو من ضريبة المحرمات !

حماية الإسلام تكون بإغلاق دور الفحش والفسوق ، وتكون بأخذ رجال الدولة بأن يظهروا دائماً خضوعهم للإسلام وإذعانهم له ! » .

ثم استطرد ، بعد أن سخر من رئيس الوزراء ، ومن شيخ الأزهر بأسلوبه الهازئ إلى رجاء حار . . قال :

« أرجو أن ينسى رئيس الوزراء وشيخ الأزهر أنفسهما لحظة واحدة ، وأن يفكرا فى أنهما يخجلان بلدهما ويسيئان إليه بهذا العبث الكثير . . فنحن فى القرن العشرين لا فى

القرن الثانى عشر . . وكرامة الأمة يجب أن تكون أحب إليهما وآثر عندهما من النكاية بفرد من الأفراد وإن كان هذا الفرد طه حسين ! . . »

لقد أرادت حكومة صدقى بسياستها الخرقاء أن تشوّه سمعة بطل من أبطال الفكر ، أن تحرقه بنارها اللاهبة . . ولكن طه حسين أذكى من أن يكون آلة بيد الأهواء وأرفع من أن يلوّث نفسه ويتحدر فى الأغوار فعصم نفسه وصان كرامته وخرج من المعركة التى أثارتها ضده الحكومة ظافراً .

١٣

من الجامعة إلى الصحافة

لقد أصبح طه حسين بدون عمل ، وهو رجل لايملك شيئاً . . فلا مزارع عنده ولا أطيان ولا أموال . . يعيش عيشة كريمة من راتبه ومما تدبجه يراعته . وسرعان ما طلبت إليه جريدة « كوكب الشرق » لسان حال الوفد المصرى أن يقبل رياسة تحريرها . . أى أن يقبل كتابة المقال الرئيسى . . ومعنى هذا أن الوفد المصرى أراد أن يضم هذا الرجل الكبير إلى حظيرته ليصاول معه عهد الطغيان . .

وكان طه حسين يود أن يظل فى صومعة الفكر — فى الجامعة — يدرس ويحاضر وينشىء جيلا يؤمن بالحرية إيمانه المطلق بها . . ولكن الظروف العصيبة ، وموقف الحكومة منه اضطرته أن يرتضى العمل فى الصحافة لأنها ستكون المنبر الحر للتعبير عن ميوله وآرائه واتجاهاته ، والصلة الوثقى بينه وبين قرائه وتلاميذه . . وأخيراً وليس آخراً ليقف وجهاً لوجه مع الحكومة التى وقفت منه هذا الموقف المزرى الذى يتنافى وكرامة الفكر وحرية الضمير . .

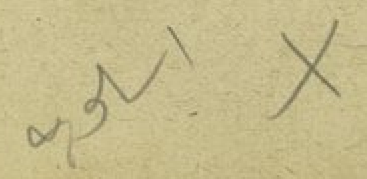
قبل العمل فى جريدة « كوكب الشرق » كرئيس لتحريرها . . وقد منحته أضخم راتب منح لكاتب . ومنذ باشر تحريرها ارتفع عدد المبيع ارتفاعاً لم تعرفه الصحافة المصرية قبل ذلك اليوم ، وقد استقبل صاحب الجريدة المرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض الدكتور طه حسين بمقال فى ستة أعمدة تحدث فيه عن عبقريته وإخلاصه لوطنه ودفاعه عن الحريات : حرية الفكر وحرية الوطن . . ومن كلماته عن صلة طه حسين بالصحافة قوله :

« . . لقد كان طه حسين فى جميع مراحله فى الصحافة التى كثيراً ما خدمها ، وكثيراً ما أحسن البلاء فيها ، والإفادة لها . كان إلى جانب رسالته العلمية والفكرية والأدبية ، لا ينشد من وراء كتاباته كلها إلا ما يراه متفقاً والمصلحة الحقيقية بحافز صادق من إيمانه الفياض المرسل كاسمه إرسالا . والمنطلق بوجدانه الحى المترع حساسية وشعوراً ، وبعاطفته النبيلة المعناة ، وحماسته المتقدة الحكيمة ، وكان فى كل أطواره نعم العون ، ونعم المدافع والنصير لجميع الحريات : حرية الفكر ، حرية الكتابة ، حرية الاجتماع ، حرية الخطابة . .

ولا أنسى جلسات خاصة جلسناها معاً والمرحوم

ثروت باشا . كان صديق ، يافعاً وشابا ورجلا ، الخصم الشريف فى العرف الكتابى ، والمصرى الوطنى فى التاريخ الواقعى ، مع سعة عطن ، وليانة جانب ، ومع عطف وحدب ، وضمير ووجدان ، ومع إخلاص صامت ، ومع حماسة جياشة ، ومع اتئاد فى تدفق ، ومع حصافة فى إضرام ، ومع إضرام فى هدوء ، ومع هدوء فى حياة ، ومع حياة فى اتزان . . كل ذلك ورائده مصلحة الوطن فى غير ضوضاء . . وشعاره : الجهر بالحق فى غير خور ولا تردد . . وفى غير حذر ولا حيطة . . »

وإذ لبس الثوب الصحفى لم ينض عنه الثوب الجامعى فكان فى مقالاته الثائرة هذا الكاتب الهادئ الذى يفلسف الأمور بروح منطقية . وبأسلوب هازئ ساخر . . وما يزال يهزأ ويسخر بخصمه حتى يرديه قتيلا . . ولم يحاول قط ، فى حياته الصحفية ، الانحدار إلى أسلوب المهاترة ، بل كان عفّ اللسان ، شأنه فى جميع خصوماته ، وكان القارئ يخرج من تلاوة مقاله وكأنه يتلو قطعة من أدب الحياة .



١٤

ظل فى نضاله الصحفى مدة غير قصيرة ، ولكن لم يترك جوه الفكرى ، فكان إنتاجه غير منقطع ، وصدر له فى هذه السنة « ١٩٣٢ » كتاب « فى الصيف » ، وهو مجموعة الرسائل التى كتبها من أوربا . . وهو كتاب لا تحده هذه الفصول والأبواب التى تحد الكتب عادة . . فهو صورة حية لنفس قوية خصبة تتحدث عن الأدب والتجديد ، عن الأزهر وشيوخه وعلله وطرق إصلاحه ، وعن هذه الصور الفنية الخالصة فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وعن كثير من صور الحزن والفرح ، والبؤس والمرح التى تزخر بها النفس ، ولقد أطال الحديث عن البحر وحياة السفر ، وعن باريس وما جد فى باريس ، منذ تركها ، من صور جديدة . وما يروق الدكتور طه شىء ، كما يروقه الحديث عن باريس وترديد ماها فى نفسه من ذكريات قديمة سواء حين كان طالباً أم حين يعاودها للمرة الثانية أو الثالثة أو العاشرة .. وقد رسم تأملاته بروح فلسفية منطلقة — تأملاته فى الحياة والكون ، فى مصر وأوربا ، فى الشرق والغرب . .

وقد أعطانا المثل الواضح بكتابه هذا على أنه ليس مؤرخاً أديباً فقط بل هو أديب فنان من الطراز الأول . .

وذهب غير واحد من كبار الأدباء ، بعد أن قرأوا « الأيام » و « فى الصيف » إلى القول إن فى طبيعة الدكتور طه هذه النزعة القصصية التى لا تتحدث عن شىء إلا استهوت قارئه وسحرته سحراً يسيطر على كل حاسة فيه ، وقد أشار المرحوم الأستاذ المازنى إلى هذه النزعة بقوله :

« إن الدكتور طه قصصى بارع ، وأديب روائى من الطبقة الرفيعة ، وإنه خير للأدب المصرى فى رأيى ، أن ينضو عنه بردة العلم ويتناول قلم القصاص . وأحسبه يوافقنى على أن كتابه " الأيام " سيبقى ، على حين قد يبقى أو لا يبقى " حديث الأربعاء " أو " فى الأدب الجاهلى " . وأرجو أن لا يرى فى هذا انتقاصاً للكتابين ! » . .

ثم أردف الأستاذ المازنى ، رحمه الله ، هذا برأى آخر فقال :

« وهل " ذكرى أبى العلاء "، و " ابن خلدون " ، و " حديث الأربعاء " إلا قصص تمثيلية ؟ و " الأدب الجاهلى " بحث علمى حر . . ولكنه على هذا رواية ممتعة . . ولست أقول هذا اليوم فقط ، فقد قلته لما صدر كتابه " فى

الشعر الجاهلى " وثار به الحمقى والدساسون والمشعوذون والحاقدون ! » .

والواقع ، أن كتابه « فى الصيف » هو قصة رحلة ، وهو قصة ممتعة ، كتبها طه حسين وهو موتور من الكثير من الأمور ، صور فيها هواجس نفسه من يوم ترك مصر إلى أن عاد إليها — تلك النفس الهائجة الثائرة ، المضطربة ، المغيظة مما يمثل على مسرح مصر من المآسى الحزينة ، ولم يمنعه وهو يرسم خلجات هذه النفس أن يذكر ماضيه القريب فيصور بعض حالاته ، ومن الصور الطريفة التى جاءت عرضاً فى هذه الرسائل قوله :

« كنت أرانى حين تركت مصر لأول مرة شيخاً معمماً قد صعد إلى السفينة ، يتعثر فى أذيال جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التى قضت [illegible]ه عاهته التى حالت بينه وبين الضوء . . فلم أكد [illegible]صل إلى غرفتى حتى طارت العمة عن رأسى ، ولقد أريد أن أتذكر إلى أين فلا أجد إلى ذلك سبيلا . . كل ما أعرفه أنى خلعتها حين دخلت الغرفة . . ثم لست أدرى إلى أى حال صارت . . ولو قد عثرت عليها لحفظتها تذكاراً باقياً . . ولوجدت شيئاً من الحنان والحزن والأمل

حين آخذ بين يدى ذلك الطربوش الكالح وتلك الخرقة التى ما أظن أنها كانت يومئذ ناصعة البياض . . وخلعت الجبة والقفطان وأنا أعلم إلى أين صارا . . منحهما أخى هدية لسيدة كان يألفها فى فرنسا . . ولست أدرى ماذا اتخذت منهما . . خلعت الجبة وخلعت القفطان ودخلت فى هذه الثياب الأوربية . . فكم ضقت بها وكم كرهتها وكم ندمت على جبتى وقفطانى طوال الأسبوع الذى قضيته على ظهر " أصبهان " رحمها الله . . فقد هوت " أصبهان " إلى قاع البحر وعبث الموج بأجزائها كما عبث بأجزاء عمتى فى أكبر الظن » .

١٥

بعد كتابه « فى الصيف » صدر له كتاب « حافظ وشوقى » . . وهو دراسة شاملة عن شاعرى مصر الكبيرين مع بحوث قيمة فى الأدب الجديد وترجمات عن الشاعرين الفرنسيين بودلير وسوالى برودوم ، وكلام عن الحرية والفن . . وتؤلف هذه البحوث والدراسات آراء الدكتور طه فى مميزات الأدب الجديد . . وقد أطلق رأيه صريحاً ، كعادته ، فى حافظ وشوقى ، فحافظ عنده مقلد صريح التقليد وشوقى مجدد ملتوى التجديد . . هكذا ابتدأ حياتهما الشعرية . . ثم يمضى الزمن على حافظ وشوقى فإذا تقليد حافظ يستحيل لا إلى تجديد بل إلى نضج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . . وإذا بتجديد شوقى يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء . . لا يتستر فيه ولا يحتاط ، ينشئ القصيدة فلا نحتاج إلى تعب أو مشقة لنجد القصيدة التى يحاكيها . . وينتهى الدكتور طه من آرائه فى الشاعرين

إلى أن شوقى لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله ، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان — لم يبلغ شوقى من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا ، أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه إلى المعانى ، وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور . وكان شوقى يقلد فيها وفى المعانى أيضاً ، وينتهى إلى « أن لشوقى فنوناً لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها ، فشوقى شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشئ الشعر التمثيلى فى اللغة العربية ، يلتقى الرجلان فى كثير ، ويفترق الرجلان فى كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً فى إقامة مجدنا الحديث » .

قيمة هذا الكتاب أنه يضم آراء جريئة فى التيارات الأدبية المعاصرة .

١٦

وقد كان طه حسين ، خلال هذه الفترات التى مرت من حياته ، ولا يزال مثال المفكر الحر ، والأديب العظيم الذى يريد أن يرقى بالأدب العربى إلى المكانة التى تحتلها آداب الأمم الحية . . وقد كتب عدة محاولات فى شتى فنون الأدب واتجاهاته فكان خير مثال يحتذى .

وإن الدكتور طه ، كما أشرت فى بدء كلامى ، صاحب مدرسة ومنهج ، ومدرسته التى تقوم على الهدم والبناء ، هى التى يحتذيها الأدباء المجددون فى الشرق العربى ، وهو إلى نزعاته التجديدية الصريحة ، كثير الالتفات إلى الماضى — أى إلى الأدب العربى القديم ، يتخذه أصفى مادة للدرس والبحث ، وقد أبرز صوره الجميلة بأسلوبه الأخاذ فاستطاع أن يحببه إلى الكثيرين حتى الذين أنكروا قيمته . . ولم تقف مباحثه فى تاريخ الأدب العربى القديم عند هـذه الدراسات الأدبية الجافة بل أحب أن يقدم إلى قراء العربية صوراً رائعة من الأساطير العربية التى لا تقل فى روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية ، فكان لنا كتابه « على هامش السيرة » وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم ، بل هو صور رائعة قوية

كانت مدفونة فى بطون كتب السيرة فجلاها بأسلوبه الأخاذ وإذا هى آيات من الأدب الأسطورى الجميل . قد عرض هذه الأحداث الجسام التى سبقت ولادة النبى محمد ، فتحدث ، بنزعة قصصية رائعة ، عن قريش وتبع ، عن الحجاز واليمن عن بلاد الحبشة وما جاورها ، وقد ربط بين هذه القصص وبعض الأساطير القديمة ، بين نشأة اليهودية واصطدامها بالوثنية ونشأة المسيحية واصطدامها بالوثنية واليهودية معاً . . وانتهى من هذه القصص والحركات التى رافقت الديانتين إلى ولادة الإسلام بعد أن صور بلاد العرب وعاداتها ورجالاتها وطبيعتها وقصصها ونشأة أديانها بأسلوب غاية فى الدقة ، واستطاع أن يضفى على التاريخ لوناً من طلاوة الأدب وفتح باب الميثولوجيا الإسلامية على مصراعيه . وقد أقبل على قراءة هذا الكتاب ، غير أولئك الذين آمنوا بعبقرية طه حسين ، جميع الذين أنكروا عليه أدبه : وحتى المعممين وأنصار القديم الذين اتهموه فى دينه ، وقد رأوه فى كتابه هذا يصور الإسلام بسماحته وبطولة شخصياته تصويراً تعجز أقلامهم عن بلوغ بعض ما بلغه زعيم التجديد الذى رسم هذه الصور بنزعة المؤرخ القاص وروح الأديب الشاعر الذى تستهويه الصورة الجميلة فيضفى عليها حسه ومشاعره وفنه وأدبه .

١٧

ثم تتابعت كتب الدكتور طه ، وكان لا يمر عام إلا ويصدر له كتاب أو كتابان . بعضها مقالات ودراسات ورسائل كتبت سابقاً فجمعت فى كتاب ، وبعضها ألف تأليفاً مستقلاً . ومن المقالات والدراسات المجموعة كتاباه « من بعيد » و « من حديث الشعر والنثر » . ويريد بكتابه « من بعيد » هذه المقالات والرسائل التى كتبت من باريس ، ومن أقصى الغرب الفرنسى ومن بلچيكا وڤيينا .

وللسفر فى نفس الدكتور طه عوامله الغريبة ، فلا يكاد يترك مصر ومشاكلها حتى تنطلق نفسه بآراء وخواطر حرة كانت تحول بعض العوامل دون كتابتها فى مصر ، وقد أشار إلى هذا بقوله :

« إن النأى عن الدار ، والتنقل فى أقطار الغربة يثيران فى نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الإقامة والاستقرار ، ويهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، والتفكير والتعبير ، لا تستقيم له حين يكون مستقيما مستقراً فى داره بين أهله ومواطنيه » .

وقد ضم كتابه هذا فصولا رائعة عن حياة باريس ولهوها ، عن سارة برنار وتمثيلها ، عن حياة البحر والسفر ، عن الشك واليقين ، عن الكثير مما له صلة بحياة الفكر ونزعات التطور . على أن أهم ما تضمنه هذا الكتاب بحثه الرائع « بين العلم والدين » وهو البحث الذى كتبه على أثر الضجة التى قامت حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، أى أن الدكتور طه لم يشأ أن يدخل مع خصومه فى مهاترات بعيدة عن روح البحث فكتب قصة النضال بين العلم والدين منذ عهد الإغريق إلى يومنا هذا . وضاقت صحف مصر آنئذ بهذا البحث فلم تستطع نشره أو لم تسمح السلطات الرجعية بنشره فرحبت به حلب ونشر فى مجلة « الحديث » .

ومن البحوث ذات الصلة بتاريخ الفكر والتى تضمنها كتاب « من بعيد » فصل عنوانه « ديكارت » لم يقصد فيه كتابة سيرة ديكارت بقدر ما أراد أن يوضح مذهب الشك واليقين بروح من الهزء والسخرية — الهزء الصارخ من شيوخ الأدب القديم ومن أئمة الرجعية فى مصر . . فبز ، بهذا الفصل ، الجاحظ فى سخرياته ولم ينأ عن روح ڤولتير .

والكتاب بمجموعه صفحات قوية عن حرية الفكر ، جمع بين أدب الرحلة وأدب الفكرة ، وقد تطوف مع طه حسين دنيا

الغرب فلا تشعر إلا بالمتعة والبهجة والسرور لأنه يحدثك حديث النفس وحديث الفكر الممتلئ بأصفى ما وعته دنيا الفلسفة ودنيا الحقيقة .

° ° °

أما كتابه « من حديث الشعر والنثر » فقد جمع فيه المحاضرات التى ألقاها فى مختلف الظروف والمناسبات الأدبية ، وهى تعلن عن رأيه الصريح فى قيمة أدبنا القديم خلافاً لما يأخذه عليه المتحذلقون الذين كانوا يتهمون زعيم التجديد الأدبى بأن تجديده يقوم على إنكار القديم بالمرة .. وهذا جهل وضلال .. وما أعرف أديباً معاصراً دعم الأدب العربى القديم وحببه إلى النشء الجديد كالدكتور طه ، فمن مقارناته اللطيفة بين الأدب العربى والآداب العالمية قوله :

« إن النهضة الأولى التى ظهرت فى القرن الثانى عشر فى أوربا إنما هى نتيجة اتصال أوربا بالعرب . فأدبنا هو الذى أحيا العقل الأوربى حتى جاءت النهضة الثانية التى اتصل فيها الأدب الأوربى بالأدب اليونانى القديم ، فلو لم يكن للأدب العربى إلا أنه قد حمل لواء الأدب الإنسانى والعقل الإنسانى فى عشرة قرون لكان هذا كافياً للاعتراف بأن هذا الأدب من الآداب التى تعتز بنفسها وتستطيع أن تثبت لصروف الزمن .. »

ولا مجال لأن نسهب فى عرض نظريته فللقارئ أن يرجع إليها فى مظانها ، ولا شك أن لهذا الرأى قيمته ، لصدوره عن رجل جامعى ، وأديب فذّ قد وسع ذهنه الآداب العالمية قديمها وحديثها وهو إذ يقارن تبدو مقارنته حكماً مبرماً .

إن كتاب « من حديث الشعر والنثر » يتضمن محاضرات قيمة عن النثر العربى فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وعن الحياة الأدبية فى القرن الثالث ، ودراسات شاملة عن أبى تمام والبحترى وابن الرومى تغنى عن الكثير من المطولات ، لأنها زبدة آرائه فى الشعراء وفى الحياة الأدبية لذلك العصر .

١٨

وكما قلت آنفا ، وكما أشار هو أكثر من مرة ، إن رحلاته إلى الغرب ذات تأثير فى إنتاجه الأدبى . فلا يكاد يسافر ، ويخلد إلى الراحة حتى يفكر بإملاء موضوع جديد .. وطه حسين لا يشكو إلا ضيق الوقت ، فلو تحرر من هذه المشاكل التى تواجهه كرجل مرموق فى عالم الأدب وانصرف إلى الإنتاج الأدبى الخالص لكان للعربية منه فى كل شهر كتاب من أمتع كتب الفكر والأدب . ولكنه أعطى الحياة العامة جزءاً غير قليل من نشاطه نطغت على وقته الذى كنا نريده للإنتاج الفنى الخالص . ولكن الإنسان مسيّر غير مخيّر . وهكذا ، فقد قضت الظروف أن ترتبط حياة طه حسين بشتى التيارات فلا ينصرف كأبى العلاء الانصراف المطلق إلى الأدب ، وقد يكون هذا التمنّى لوناً من الخبل ، لأن الرجل المفكر ابن بيئته ، وحياته مرتبطة بما تفرضه عليه الحياة — حياة وطنه من قيود وأعباء .

◦ ◦ ◦

كانت الرحلة إلى فرنسا سنة ١٩٣٦ من العوامل التى دفعته

أن يكتب ، فى جبال الألب حياة المتنبى – مالئ الدنيا وشاغل الناس – وقد كتب عن المتنبى ، بمناسبة ذكراه الألفية ، الكثير من المباحث والرسائل والكتب .. ولكن نظرة طه حسين إلى المتنبى تختلف عن نظرة الكثيرين ، إنه لا يحب المتنبى كما يحب غيره من الشعراء .. ومع ذلك فقد صحب ديوان المتنبى معه إلى جبال الألب – صحبه ليقرأ بعض قصائده هناك ، وكأنى بطه حسين أراد أن يصفّى علاقته مع هذا الشاعر العظيم .. أصحيح أنه يكرهه ؟ . لا أظن .. وإلا لما شغل به هذا الاشتغال المضنى فى فترة استجمامه والتى أنتجت كتاباً فى جزأين بلغت صفحاته السبعمائة صفحة ونيفاً عرض فيها إلى حياة المتنبى وعصره وعوامل طموحه وصراعه مع الأمراء والملوك وتحليل دقيق للكثير من قصائده . وما أظن أن أديباً استطاع أن يرسم هذه الظلال من حياة المتنبى كما رسمها طه حسين . أيدل هذا على أنه يكرهه ؟ ويأبى الدكتور طه إلا أن يؤكد الكراهية . كرهه لشخصه لا لأدبه بهذه الكلمات التى جاءت عرضاً فى سياق بحث من بحوثه :

« ... إلى هذه الحال انتهى المتنبى حين فارق سيف الدولة وألقى بنفسه بين يدى سيده الجديد كافور .. جحد ماضيه كله ، ورفض آراءه كلها ، ونزل حتى عما كان

خليقاً أن يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء ، ولا تقل إنه كان محتاجاً إلى هذه الذلة ، مضطراً إلى هذا الهوان ، عاجزاً عن أن يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة للفن ، فلم يكن المتنبي فى ذلك الوقت بائساً ولا فقيراً ، بل كان بعيداً كل البعد عن البؤس والفقر ؛ أخذ من سيف الدولة مالا كثيراً ، ولم يسرف فى هذا المال .. بل أسرف فى حسن تدبيره وشدة القيام عليه حتى انتهى إلى البخل القبيح ، وخرج من ملك الحمدانى يسوق بين يديه مالا ضخماً ويحيط به عدد ضخم من الرقيق . فلو شاء أن يعيش حراً كريماً مستقلا لما وجد فى ذلك مشقة ولا جهداً . وقد يقال إن حياة الشعراء فى ذلك العصر لم تسمح لهم بهذا اللون من الحياة ، وقد يقال أيضاً : إن شاعرنا لم يكن يستطيع أن يعرض عن مدح الأمراء والملوك ولو حاول ذلك لعرضوه للأذى ولأكرهوه عليه إكراهاً — قد يقال هذا كله ولكنه لا يغنى عن المتنبي شيئاً ولا يزيد على أن يؤكد ما نذهب إليه من أن المتنبي كان شاعراً كغيره من الشعراء ، ورجلا كغيره من الناس . قد رفع نفسه فوق قدرها ، وزعم لها ماليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغى لمثله أن يطمع فيه ... ظن نفسه حراً ، ولم يكن إلا عبداً للمال ، وظن نفسه أبياً ، ولم يكن إلا ذليلا للسلطان ،

وظن نفسه صاحب رأى ومذهب ، ولم يكن إلا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التى كان يتهالك عليها أيسر الناس أمراً وأهونهم شأناً .

وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة ، واحتقر الناس وازدراهم ، وأنكر الملوك والأمراء . وزهد فى التقرب إليهم والدنو منهم ، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر الكريم ، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف . فوفق لنفسه وعقله بكل ما أراد ، ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي ، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبي ، فقد حرمته بصره ، ولم تتح له من الغنى والثروة ما يكفل له الحياة وخفض العيش . . ومع ذلك عاش كريماً ومات كريماً ، ولم يتعلق عليه أحد بذلة ، ولم يغتمز فيه أحد هفوة ، وسخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان ، واستطال على السلطان وعجز السلطان أن يستطيل عليه . وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يخلّوا بينه وبين حريته ، وأن لا يشركوه فيما يعرض لهم من خير ولا شر . وأن لا يخرجوه معهم إن خرجوا من المدينه فارين أمام الروم ، وأن يقيموا فى المدينة إن أمنوا ويظعنوا عنها إن خافوا ، ويتركوه فيها على كل حال ، لأنه رفع نفسه فوق الأمن

والخوف جميعاً ، وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذى أتحدث عنه وهو أبو العلاء .

فالفرق إذن بين هذين الرجلين ، هو الفرق بين الفيلسوف والرجل من سائر الناس . والذى أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل هو أن المتنبى قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم ، ولكن الغريب أن المتنبى لم يخدع نفسه وحدها ، وإنما خدع معها كثيراً من الناس ، فظنوا به الحرية والكرامة وإباء الضيم .. وليس هو من هذا كله فى شىء . . إنما هو رجل من أهل زمانه لم يتميز منهم بأخلاقه ، وإنما امتاز منهم بلسانه ؛ كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء . . »

على أن هذا الكره ، أو هذا الرأى الذى أبداه طه حسين فى خلق المتنبى وفى شخصيته لم يمنعه أن يغوص إلى شعره الوثيق الصلة بحياته ، وبمن اتصل بهم ، يدرسه ويدرس عوامل اتصاله بهم دراسة مفصلة وينتهى — بعد أن يعرض جميع مراحل حياته — إلى رأى غريب يطرحه بكثير من الحرية ، وهو أن ديوان المتنبى إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياة المتنبى لا أكثر ولا أقل ، كما أن كتابه هذا — مع المتنبى — إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من

حياة طه حسين لا أكثر ولا أقل !

وبالرغم من هذا الالتواء الذى أراده الدكتور طه ، فالكتاب هو – فى رأيى – أوفى دراسة لحياة المتنبى من شعره الذى قاله فى شتى المناسبات منذ فجر صباه إلى آخر لحظة من لحظات حياته . .

وقد أتعبه هذا الكتاب ، ولم يذق خلال أشهر الصيف طعم الراحة ، ولاحظت عليه زوجه أثر هذا التعب فكانت تحاول أن تصرفه عن الكتابة . . ولكن أنى لها ذلك . . فقد عاش جسمه فى جبال الألب . . ولكن فكره فى بغداد وحلب وأنطاكية ومصر وأرجان . مع المتنبى وابن عمار وأبى العشائر وسيف الدولة وكافور وعضد الدولة ... لقد تابعه فى كل لحظة من لحظات حياته وما زال حتى انتهى من تأليف هـذا الكتاب . . وما كاد يفرغ منه حتى التفت إلى زوجه يهديها ثمرة جهده بهذه الكلمة الكبيرة التى تعبر أصدق تعبير عما يحمله لهذه السيدة الحنون من حب وما تحمله هى له من عطف وحب :

« . . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

صدق الله أيتها الزوج الكريمة ، وتمت كلمته ، ففى ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفى ذرى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول ، وإن قلبى ليملؤه البر ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه ، أثناء ذلك ، من حث لى على الراحة ، ورغبة إلى فى الترويض ، وإلحاح على فى الاستمتاع بنعيم الحيـــاة وجمال الطبيعة فى جبال الألب ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض . . وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والإشفاق . وإنى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسياً جافياً . . ولكنى أعلم أنى مدين لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب فأذنى لى فى أن أقدمه إليك لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرين» .

* * *

وإن دلنا هذا الإهداء على شىء فعلى الجهد الذى أرهق به نفسه فى سبيل المتنبى الذى أحبه وكرهه . . وكان نتيجة هذا الحب والكره المزدوج كتابه العظيم عن ذلك الشاعر العظيم !

١٩

مرت سنة ١٩٣٦ فى جد وكد ، ولم يستطع أن ينعم بروائع الطبيعة فى ظلال الألب ، ولم تتيسر له الراحة التى ينشدها المصطافون . . وعاد من أوربا إلى مصر يتابع نشاطه الذهنى ويستقبل الحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة حتى ضعف جسمه وانهدت قواه . ويؤكد فى إحدى رسائله أن أعصابه قد اضطربت فأصبح سريع الغضب ، سريع الرضا وسريع الانفعال بوجه عام ، ولم ير بداً ، بعد أن مرت فصول السنة الدراسية ، من أن يسافر إلى أوربا فركب البحر إلى فرنسا . ومر بباريس مروراً سريعاً فى طريقه إلى قرية نائية منزوية فى أعالى جبال الألب . فقضى الصيف فى قرية « سالنش » . وقد صمم هذه المرة أن يعيش حياة المصطافين وأن يطلق عالم الصحف والكتب ، وأن يقضى أيامه فى ظلال الطبيعة يستجم . . وتشاء الصدف أن يصطاف توفيق الحكيم فى تلك القرية الجميلة ، وكان لا بد من اجتماع الأديبين العظيمين فى تلك المرتفعات — وكلاهما قد تزود بالثقافة الفرنسية — وكان لا بد من أن تترك هذه الزيارة أثرها فى

نفسيهما . . وقد كان ذلك . . ورأيا أن يستلهما « شهر زاد » صفية توفيق الحكيم . . وأن يتبادلا رسائل أدبية يعبران فيها عن الكثير من آرائهما فى الأدب والحياة . وأن يكشف كل واحد منهما . أمام شهر زاد ، مباذل صاحبه فى أسلوب باريسى غاية فى الرقة والظرف .

وقد أنتجت هذه الرسائل كتاباً لم ينل الحظوة الكبرى لدى جمهور القراء وإن نزل من نفوس الأدباء منزلة كريمة ، أريد به « القصر المسحور » — قصر شهر زاد التى تركت هجير بغـداد لتلحق بالأديبين فى ذرى الألب فكانت طرفاً ثالثاً فى هذه الرسائل بين طه والحكيم اللذين لم يكادا يفرغان من الكتاب حتى أهدياه إلى تلك المرأة التى كانت تشيع ذهابهما إلى القصر المسحور وتتلقى عودتهما منه بنظرات حائرة وبسمات ساحرة ، فيها الرحمة والإشفاق والتشجيع لأنها تعرف كيف تحيى زهرات الأدب وتبعث نشاط الأدباء — إلى مدام طه حسين .

٢٠

إن طه حسين كأديب جامعي ، رافقت حياته جميع مراحل التعليم فى كافة فتراته ، وكمواطن حر يريد لمصر أن تخطو خطوات سريعة فى ميادين العلم والمعرفة ، آلمه أن لا يكون لمصر برنامج علمي عملي ، تجارى فيه الأمم الحية فى نظمها التعليمية وطرق دراساتها الحرة . وقد أراد أن يضع لمصر هذا البرنامج العملى فكان كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » . وهو كتاب فى جزأين بلغت صفحاتهما الخمسمائة صفحة تقريباً .

ومن حظ الحياة الفكرية فى مصر ، والحياة الثقافية بصورة أعم ، أن يؤرخ أحداثها هذا المعلم الحكيم . ومن حظ قراء العربية أن يقرءوا هذه الفصول التى كتبها زعيم التجديد فى مصر ، وقد عاش طوال حياته فى الجو المدرسى المنطلق . والواقع أن النهضة الفكرية فى البلدان العربية ترتبط أوثق رباط بالنهضة الفكرية فى وادى النيل . وكتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » تصوير دقيق للكثير من مشاكل الثقافة فى الشرق العربى ، ولأطوار التفكير وأطوار التعليم فى اتجاهاتها المختلفة . وهذا ماعرض إليه الدكتور طه بكثير من التوسع ، وبكثير من الوعى والمعرفة ،

وخرج من بحوثه بخطط ونظريات جريئة لقلب أكثر أوضاع التعليم تمهيداً لخلق جيل جديد يجارى التيارات الحديثة فى تطوراتها المتدافعة .

كتب كتابه هذا فى ذرى جبال الألب بين سنتى ١٩٣٧ و١٩٣٨ ، وكانت أقصى أمنياته ، بعد أن رسم هذا البرنامج الطويل الذى ينقل مصر العزيزة من الظلمة إلى النور — كانت أقصى أمنياته أن يتحقق الحلم الذى تراءى له وهو يخط سطور كتابه . . وما هذا الحلم ؟

هو تحرر مصر من الظلمة والفقر والجهل .

فهو فرح إلى أقصى غايات الفرح ، مبتهج إلى أبعد حـــدود الابتهاج ، سعيد إلى أرقى درجات السعادة . فقد رأى ، فى حلمه ، شجرة الثقافة المصرية باسقة ، قد ثبتت أصولها فى أرض مصر ، وارتفعت فروعها فى سماء مصر ، وامتدت أغصانها فى كل وجه ، فأظلت ما حول مصر من البلاد ، وحملت إلى أهلها ثمرات حلوة ، فيها ذكاء للقلوب وغذاء للعقول . وقوة للأرواح .. وهم يسعون فى هدوء واطمئنان وثقة إلى هذه الغصون النضرة الوارفة ، فيستمتعون بمنظرها ، ويأوون إلى ظلها ويستمتعون بثمراتها المتشابهة لأنها تصدر عن شجرة واحدة ، هى ثقافة مصر المختلفة . لأنها تحمل إليهم ألوان العلم وضروب المعرفة وصنوف

اللذة الفنية على تنوعها .

وقد رأى ، على ضوء حلمه الرائع الجميل — رأى مصر وقد بذلت ما دعاها إلى بذله من جهد فى تعهــد ثقافتها بالعناية الخالصة والرعاية الصادقة — أن الجهل قد انجاب عنها وأظلها العلم والمعرفة وشملت الثقافة أهلها جميعاً ، فأخذ بحظه منها الغنى والفقير والقوى والضعيف والنابه والخامل والناشئ ومَن تقدمت به السن ، وتغلغلت لذتها حتى بلغت أعماق النفوس . وانتشر نورها حتى أضاء القصور والدور والأكواخ ، وشاعت فى مصر كلها حياة جديدة وانبعث فى مصر كلها نشاط جديد ، وأصبحت مصر جنة الله فى أرضه يسكنها قوم سعداء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالسعادة وإنما يشركون غيرهم فيها ، وأصبحت مصر كنانة الله فى أرضه حقاً يعتز بها قوم أعزاء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالعزة وإنما يفيضون على غيرهم منها .

ولم يدر الدكتور طه حين كتب كتابه هذا أن القدر كان يمكر به هذا المكر الجميل ، وقد دفعه أن يرسم تلك الخطط الجريئة ليطالبه ، بعد عشر سنوات ، بتنفيذ ما أملته تلك النفس العلوية التى هامت بحب مصر وأهل مصر .

وها هو ذا الآن ، بعد أن تسلم مقدرات التعليم وأصبح وزيراً للمعارف ، يعمل عمل الجبابرة لتحقيق حلمه الرائع الجميل ...

ولكن أتواتيه الظروف للعمل وفق هواه ؟ أم تقف القيود الكثيرة سداً منيعاً دون تحقيق برنامجه الضخم ؟ هـــذا ما لايدخل فى نطاق كلامنا ، وإن كان قد استطاع أن يعمل فى عام ما لم يستطع أن يعمله غيره فى ربع قرن . . وكانت مجانية التعليم أولى خطوات برنامجه الثقافى الواسع الذى يهدف إلى إنشاء المدرسة الأولية فى كل قرية ، والمدرسة الثانوية فى كل مدينة ، والمدارس الفنية على اختلافها فى كل إقليم . ولا أتحدث عن تعزيزه الحياة الجامعية فقد كان وما زال الدعامة الكبرى التى تسند الحياة الجامعية وتعززها وترفع من شأنها لا فى مصر بل فى أقطار الشرق العربى كلها .

° ° °

لقد انتثرت فى كتابه الكثير من الآراء التى تمس النواحى الثقافية وأسس التعليم مباشرة ، فلا نعرض لها ، ولكن هناك آراء طريفة لاضير علينا أن نمرّ بها مروراً سريعاً لأنها تعبر عن نزعاته التجديدية فى حياة مصر المتطورة ، فمصر ، ذات التاريخ الثقافى القديم ، يجب ، فى عقيدة طه حسين ، أن لاتبقى فى معزل عن هذا التطور الذى يهزّ العالم بل يجب أن تندفع مع التيار التقدمى لتحفظ هذا التوازن بين ماضيها وحاضرها. فمستقبل الثقافة فى مصر مرتبط بماضيها البعيد ، والعقل المصرى

مرتبط منذ القديم بشعوب بحر الروم ، وقد خالط الفكر اليونانى القديم تمام المخالطة فتأثر به وأثر فيه ، ويذهب إلى أن مصر غير شرقية ، فتبدو نظريته غربية ، ولكن لا يكاد يجردها من شرقيتها حتى يعود ليؤكد مصريتها . . فمصر ، فى نظره ، بعيدة كل البعد عن الهند والصين واليابان ، وهى قريبة كل القرب من اليونان والطليان والفرنسيين . ويثبت بكثير من الحجج والبراهين أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد ، وإنما نشأ مصرياً برغم ما مر به من فتوحات وحضارات ، وينتهى إلى موقف مصر الثقافى فى الماضى وحمايتها العقل الإنسانى فى عهد اليونان ، وحمايتها له بعد غارة الترك ، ثم يؤكد أن لا فرق بين المصرى والأوربى فى العقلية ، وفى هذه المثل العليا التى يتجه إليها الغرب . وبهذا يرد مباشرة على الذين يقولون إن « العقلية المصرية » عقلية إفريقية ، وإن خصائصها دون خصائص « الذهنية الأوربية » بكثير ! . .

هذا ، ولا يفوت طه حسين أن يهزأ ويسخر بالعقلية الرجعية التى تحاول عبثاً أن تبتعد عن أوربا وعلمها وفنها فيخاطبها متهكماً بقوله :

« فلو قال قائل : إنا قد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا حرب الكرّ والفرّ ، وهذه العادة التى تنحصر فى السيف والرمح والقوس والسهم

والدرقة والدرع ، فلندع للأوربيين نظامهم الحربى وما استحدثوا من ألوان السلاح وأدوات التدمير ، ولنكتف بجيوش تشبه فى عددها وعُددها جيش خالد بن الوليد أو جيش بيبرس .. لو قال قائل بهذا الكلام للقيه المصريون جميعاً بالضحك والسخرية والاستهزاء . ولكان المحافظون وأنصار القديم أشدّ الناس التواء عليه وازوراراً عنه .. » ثم قال : « إنى لأتخيل داعياً يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التى ورثوها عن آبائهم فى عصر الفراعنة أو فى عصر اليونان أو العصر الإسلامى — أتخيل هذا الداعى وأسأل نفسى : أتراه يجد مَن يسمع له ويسرع إلى إجابته أو يبطئ فى هذه الإجابة .. ولكنه يجيب على كل حال ؟ فلا أرى إلا جواباً واحداً يتمثل أمامى بل يصـدر من أعماق نفسى وهو : أن هذا الداعى إن وجد لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به ! .. »

وفى جوّ هذه الاستطرادات التى ترمز إلى نزعاته التجديدية ، وبعد أن وضع ذلك البرنامج الضخم لمستقبل الثقافة فى مصر حدد موقف مصر من التطور العالمى ، أو رسم خطوط هذه الثقافة التى أرادها ثقافة مصرية إنسانية ، فيها شخصية مصر القديمة الحادثة ، وفيها شخصية مصر الباقية الخالدة ، وهى فى الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغزو قلوب الناس وعقولهم وتخرجهم من الظلمة إلى النور .

٢١

بعد كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » صدر له كتاب عن أبى العلاء المعرى ..

لقد عاد إلى صنوه وصديقه ليكتب عنه من جديد . وما زال أبو العلاء أحب شخصية أدبية إلى طه حسين الذى يجد عنده دائماً نواحى جديدة جديرة بالدرس . هذا ما أكّده طه حسين أكثر من مرة وفى مناسبات عديدة .. فهو يذهب إلى أن واحداً ، مهما يكن قوياً ماهراً فى البحث متقناً له ، لن يستطيع أن يتفهم وحده أبا العلاء ويُظهر الناس على دخيلة نفسه وعلى وجوه مذاهبه فى الأدب والفلسفة وغيرهما من فروعه المختلفة للعقل والشعور .. ليس ذلك بالشىء اليسير لرجل واحد ... بل لابد فى رأى عميد الأدب من أن يتعاون عليه رجال مختلفون كلهم قوى فى مادة من مواد العلم . وكلهم ماهر فى منهج من مناهج البحث . أى يجب أن يفرغ الأدباء المجودون لأدب أبى العلاء ويجب أن يفرغ الفلاسفة المتقنون لفلسفة أبى العلاء ويجب أن يتقسّم الأدباء فيما بينهم أدب أبى العلاء فيفرغ قوم لشعره العادى وآخرون لشعره

الفلسفى ، ويفرغ قوم لنثره العادى وآخرون لنثره الفلسفى ، ويجب أن يتقسّم الفلاسفة فلسفة أبي العلاء فيفرغ قوم لفلسفته الدينية ، وآخرون لفلسفته النفسية والخلقية والاجتماعية وآخرون لفلسفته الطبيعية وهلم جرا ... ثم يجب أن يفرغ علماء النحو واللغة لعلم أبي العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما ، وعلى هذه القاعدة يستطيع كل هؤلاء الباحثين أن يخلصوا من درس أبي العلاء إلى نتائج – إن لم تكن مقنعة مزيلة للشك فهى مرضية مشجعة على الأمل .

هذه هى وجهة نظر طه حسين فى دراسة شخصية أبي العلاء وأدبه وفلسفته .

وقد فتح هو الباب – كما قدمنا – على مصراعيه بكتابه « ذكرى أبي العلاء » ، و « تجديد ذكرى أبي العلاء » ، وبهذه الدراسات الجامعية التى كتبها تلامذته على ضوء توجيهه ، وهى دراسات نفيسة . . . ولم يكتف هو بما كتبه وبما وجه إليه تلامذته بل أطرفنا بكتاب ثالث عنوانه « مع أبي العلاء فى سجنه » ، وهو كتاب يتناول نواحى نفسية دقيقة من حياة أبي العلاء . كتب هذا الكتاب فى إحدى سفراته إلى باريس ، وهو تأملات فى تلك الحياة المنكمشة التى عاشها الشاعر الفيلسوف . وليس كطه حسين أديب يستطيع

أن يتحسس تلك الحياة وينفذ إلى أغوارها . وقد أضاء لنا ما أنتجته تلك الحياة من أدب وفلسفة .

فتشاؤم المعرى ، عند طه حسين ، مصدره العجز عن تذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم ولذة ، وفى أكثر من فصل واحد يعرض طه حسين إلى معنى التشاؤم والتفاؤل فيرسم صوراً من نفسيته ونفسية أبى العلاء – نفسية طه حسين المتفائلة ونفسية أبى العلاء المتشائمة .. ثم يصور لنا هذه الفروق بين المكفوفين والمبصرين فى تلمس جمال الحياة ومباهج الطبيعة ولا أريد أن ألخص هذه الفصول التى لا تلخص بل ألمح إلماعاً ولاسيما إلى تلك الصفحات المشرقة التى أملاها عن فلسفة أبى العلاء القاتمة التى كتبها فى سجنه – هذا السجن الذى ارتضاه لنفسه فلبث فيه خمسين عاماً ينثر آراءه فى مصير النفس ومتاعب الحياة . فى السعادة والشقاء . فى اللذة والألم . فى الموت والبعث . فى الشك واليقين . فى الديانات والنبوات . فى الإيمان بالعقل الذى قاده إلى شتى المعضلات الفلسفية التى زادته حيرة وشكا ولم تهده إلى نتيجة يطمئن إليها ضميره .

لقد بدا طه حسين فى كتابه هذا ناقداً فيلسوفاً أكثر

منه أديباً مؤرخاً . وإذ يعرض إلى نواحى فلسفته التشاؤمية بأسلوبه الرائع الذى يبسط مشكلات تلك الفلسفة المعقدة يثير فى نفس القارئ أسئلة خطيرة عن نواح مختلفة من أدبه وفلسفته :

هل أراد المعرى فى « الفصول والغايات » معارضة القرآن ؟ ما وجه التشابه بين « اللزوميات » و « الفصول والغايات » ؟ مارأى المعرى فى البعث ؟ أين تلتقى وأين تختلف آراء المعرى مع آراء الأبيقوريين ؟ لماذا آثر أبو العلاء الرمز واصطنع الألغاز فى أدبه ؟ ما هى الناحية الإنسانية فى شخصية أبى العلاء ؟ كيف بدأت حياته الفلسفية ؟

يجيبنا الدكتور طه عن هذه الأسئلة بفصول بارعة ، على ضوء من شتى المذاهب الفلسفية وشتى المذاهب الأدبية ليصل إلى الحقائق الناصعة التى تكشف لنا الكثير مما غمض من حياة أبى العلاء . .

• • •

ومادمنا فى صدد كتاب الدكتور طه عن أبى العلاء فيجب أن نشير إلى كتيب صدر له فى سلسلة « اقرأ » عنوانه « صوت أبى العلاء » ، وقد نثر بعض قصائد أبى العلاء بأسلوبه الشعرى الأخاذ فمهد للكثيرين الذين يصعب عليهم فهم

الأزوميات فهماً صحيحاً أن يدركوا غايات الفيلسوف الشاعر ومراميه ، وهذه الصور المنثورة التى تعرض لحقيقة الكون وفلسفة الحياة كثيرة الشبه برباعيات الخيام مع مراعاة الاختلاف بين مزاجى الشاعرين !

٢٢

وتتابع إنتاج الدكتور طه ، وتتابعت كتبه . وبعض هذه الكتب فصول كانت قد نشرت فى الصحف والمجلات كما قلت ، وبعضها مما ألفه . وكان محصوله من القصص غير قليل فصدر له كتاب « لحظات » و « صوت باريس » وكل كتاب فى جزأين ، ويضمان هذه القصص التى لخصت من عيون الأدب الفرنسى المعاصر — عن پول چيرالدى ، وشارل مترى ، وألفريد كايو ، وهنريك بيك وغيرهم من الكتاب المعاصرين الذين غذوا المسرح الفرنسى والأدب الفرنسى برواياتهم التمثيلية وقصصهم الطريفة التى تصور حياة فرنسا فى مختلف مظاهرها تصويراً صادقاً تمازجه هذه السخرية التى امتاز بها الأدب الفرنسى بل تمازجه هذه « الواقعية » التى تمثل على المسرح ما يجرى فى محيط العائلة وفى صميم المجتمع . وطريقة الدكتور فى تلخيص القصص الفرنسية سبق أن أشرنا إليها فلا نعود إليها . فهو يعرض إلى فن الكاتب ومرماه الفلسفى واتجاهه الإجتماعى وروح البيئة وآراء النقاد فيه حتى إذا أدناك من القصة ومن الكاتب عمد إلى إبراز فصولها فى إيجاز ، غير مخل ،

فلا يضيع على القارئ إلا هذه الاستطرادات التى يتوسع بها الكاتب فى وصفه مما لا طائل تحته . والكتابان بمجموع قصصهما يضمان نماذج طريفة من الروح الباريسية والحياة الباريسية بشتى صورها . وهى لون جميل من الأدب الفرنسى المعاصر .

هذا ، وقد أصدر الدكتور طه ، فى هذه الفترة ، روايتين مصريتين كان لهما أثرهما فى الأوساط الأدبية وهما « شجرة البؤس » و « دعاء الكروان » . وقد برهن الدكتور طه ، فى هاتين القصتين ، على أنه قصصى من الطراز الأول ، حرص أن يصور هذه الصور البارزة من ملامح المجتمع المصرى ، وبالأخص الطبقات الفقيرة التى تعيش فى جو مظلم من البؤس والضنك والشقاء والتى تحرص كل الحرص على عاداتها وأخلاقها وشرفها وعرض نسائها . و « دعاء الكروان » من القصص الإنسانية التى كتبت بأسلوب نفسانى عميق ، فقد وصف الدكتور طه فى هذه القصة بشاعة الجريمة ولذة الانتقام . ضعف الرجل وقوة المرأة . العدل الإلهى والظلم الإنسانى . نزوات البشر وأحكام القدر . مناعة الخلق فى الريف وميوعته فى المدن ، وبلغ الغاية فى تصوير هذه المأساة الإنسانية بأسلوب عاطفى يهز

الأفئدة ويستدر الدموع من المآقى .

وكتابه « المعذبون فى الأرض » تصوير دقيق لهذه الأسر الكادحة التى تلاقى ألوان الشقاء وأصناف البؤس حتى اتهم الدكتور طه بميله إلى اليسارية بعد صدور كتابه هذا الذى ضاق به جو مصر فنشره فى لبنان وأهداه إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ويؤرقهم الخوف من العدل ، وإلى الذين يجدون ما لا ينفقون ولا يجدون ما ينفقون .

لقد كان طه حسين فى هذه الفترة فى ثورة نفسية هائجة ، وكان هو أحد المعذبين ، لقد تآمرت عليه الدولة ، وتنكر له حتى أخلص أصدقائه ، فاعتصم فى صومعته — فى بيته ومكتبته — يملى من ذلك العالم الفسيح آراءه الفلسفية الحرة فى الحياة والمجتمع وفى طباع الناس وأخلاق البشر . وقد كان من وراء ذلك كتابه « جنة الشوك » . وهو لون جديد من ألوان الأدب لم يطرقه الأدباء المعاصرون ، يرمى إلى تصوير فترات عصر الانتقال التى تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأى واختلاط الأمر وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مناهج الحياة مما يدفع المصلحين إلى النقد والعناية بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج والدلالة على الخير ليقصد إليه ، وعلى الشر لتنكب سبيله . ويخيل لمن يقرأ بعض آيات هذا الكتاب أن طه حسين قد سلك

مسلك صديقه أبى العلاء فى تصوير طباع الناس الذين أحسن إليهم فأساؤا إليه ، وصارحهم بما ينطوى عليه قلبه من حب ، فخاتلوه وخذلوه وتآمروا عليه — وهو كالطود ينظر إلى ختلهم ومؤامراتهم وكذبهم ونفاقهم بالهزء والسخرية — لا يعتمد إلا على نفسه وعلى سجيته وهذا القلم الذى يخفف من ألمه كإنسان ، ومن ألم الإنسانية التى يحس إحساسها ويشعر شعورها .

وما زال فى الطريق الوعرة الشائكة ، إلى أن انجلت عنه تلك الظلمات وأخذ مكانه من القمة ، فلم ينتقم حيث كان يستطيع الانتقام ، ولم يمسّ أحداً من أصدقائه بأذى ، بل عطف عليهم ، وأدناهم منه ، وكأنه أراد أن يعطيهم درساً فى الأخلاق . وهذه القطعة التى نقبسها من كتاب « جنة الشوك » تمثل لنا نفسيته الجميلة أصدق تمثيل :

« قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ :

إنى أقرأ فى بعض ما يقول نيتشه : أن كثيراً من الناس لا ينبغى أن تصافحهم بيد رقيقة ، وإنما تبسط إليهم يداً كبرثن الأسد ، وأريد أن تكون فيها مخالب حادة .. فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

هم أكثر الذين تلقاهم مصبحاً وممسياً ، فيلحظونك بعيون

ملؤها الود ، ويبسمون لك من ثغور مشرقة رقيقة ومن ورائها الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون التودد إليك والتلطف لك ولا سيما حين تحدث الأحداث وتلم الخطوب .

ولكن نيتشه يا بني صاحب قسوة وسطوة وعنف ، فاقرأ إن شئت قول الله عز وجل : " ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " . »

وكم كان طه حسين قوى العزم حين صبر بإباء وشمم على غدر أصدقائه الذين كادوا له فغفر لهم عقوقهم ولم يمس واحداً منهم بأذى .

٢٣

عرف الدكتور طه ، إلى دراسته الأدبية الممتعة وإنتاجه الفنى الرائع ، وإلى ما أنشأه من كتب فى شتى فنون الأدب – عرف كإمام من أئمة النقد . وقد حمل معوله يهدم هذه التقاليد البالية ولا سيما حين ثارت الخصومة بين القدماء والمحدثين ، فكانت صيحاته التجديدية ثورة لاهبة على الرجعية . . وكان لا يهدم إلا وقد رسم خطط البناء الجيل الصاعد . . وهكذا ، فقد استطاع هذا الأديب المجدد أن يخلق ثورة فى حياتنا العقلية ، وأن يسير بالأمة هذا السير الحثيث الذى يدنيها من الأمم الحية اليقظة التى تنشد الكمال فى كل شىء . . لقد اصطنع النقد لا لنهدم فحسب بل للبناء – اصطنعه كأداة لبعث الحيوية . . . وقد تناول بالنقد فى عدة مناسبات الحياة الأدبية التى خلت ، وكانت له جولات وصولات مع أئمة الأدب القديم وشيوخ الرجعية ؛ مع المجددين وكبار الشعراء ، ثم صرفته شؤون الجامعة والإنتاج الأدبى الخالص وشتى صروف الحياة عن المصاولة . . وشعر أن الحياة الأدبية تغط فى نوم عميق . أو أن أدباءنا وشعراءنا ينتجون وهم نيام ؛ وقد أمنوا النقد أو استيأسوا منه ، لذلك نراهم

ينتجون فى فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ، لأنهم اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضا أو يبين عن السخط . والقراء يقرءون وهم نائمون ، قد تعودوا أن ينفقوا الوقت بين حين وحين فى قراءة هذا الكتاب أو ذاك، لهذا الأديب أو ذاك ؛ لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأى من الآراء ، أو مذهب من مذاهب الإنشاء وإنما دعتهم العادة إلى القراءة .

هذا النوم العميق هو الذى حفزه أن يوقظ النوّام ؛ وأن يبعث الحياة الأدبية من رقدتها ، فعرض إلى غير واحد من الأدباء والشعراء — عرض إلى كتبهم فنقد أدبهم وشعرهم ، داعبهم ومازحهم، سخر وهزأ . وأظهر مواطن الضعف والقوة فى أدبهم وطباعهم ، وقد حاول أن يكون فى نقده قاسياً ولكنه لم يكد يعرض إلى كتب أصدقائه حتى كانت مقالاته رسائل فى الحب والعطف والمداعبة والإلماع إلى بعض الهفوات أكثر منها هذا النقد الصارم القاسى الذى ارتقبه الأدباء والقراء من عميد الأدب ولا سيما أنه قد وعد أن يقبل على الأدباء لا مسالماً ولا موادعاً بل مخاصماً وملحاً فى الخصام . . فجاءت خصومته أو نقده ثورة من رهافة الحس وباقات من أضاميم الزهر التى كشفت عن المحاسن وأغضت بعض الإغضاء عن المساوئ . . .

ولم يكمل ما بدأ به واقتصرت هذه المقالات على نقده لكتاب « فيض الخاطر » لأحمد أمين و« رجعة أبي العلاء » للعقاد و« أهل الكهف » لتوفيق الحكيم ، إلى مناقشة هادئة لآراء المازنى فى الأدب ، وعرض لكتب وقصص بالفرنسية دبجتها يراعة بعض المصريات والمتمصرات . وهذا ما اشتمل عليه كتابه « فصول فى الأدب والنقد » . . ضم إليها دراسات عن أندريه جيد وجول رومان وپول ڤاليرى .

وقد كان القراء يرقبون من عميد الأدب العربي أن يستمر فى كتابة هذه الفصول ، وأن يعرض لنقد عشرات الكتب — كتب الناشئين الموهوبين والشيوخ الذين آذنت شمس شهرتهم بالغروب — ولكنه اكتفى بهذه الفصول ، أو أن ظروف الحياة — وما أقساها — قد صرفته عن متابعة هذه الرسائل ، وهى على قلتها تعد من المراجع الحسنة للون من مصاولات النقد فى الأدب المصرى المعاصر .

٢٤

لايشكو الدكتور طه حسين شيئاً بقدر ما يشكو من مواضعات الحياة فى مصر ، ومذ استفاضت شهرته كثرت أعباؤه وكثرت مضايقات الناس له . فهو يشكو ثقل أولئك الذين يزعجونه كل يوم بمناسبة وبغير مناسبة ، وينفر سمعه من صوت التليفون الذى لا تهدأ صلصلته منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس !.. ثم من هذه الزيارات المفاجئة التى تصب عليه صبا بغير حساب وفى غير تقدير وعلى غير إيذان بها وانتظار لها حتى سلبته راحته وسلبته هذه اللحظات القصار يخلو بها إلى نفسه ويهدأ من أعباء الحياة . . وحتى أصبح ولم يعد ملكاً لنفسه ولا ملكاً لأهله ولا لعمله بل هو ملك لأولئك المحبين الذين أزعجوه وأرهقوه وسلبوه راحته ! . .

وتمتد هذه المضايقات إلى مخبرى الصحف الذين يريدون رأيه فى الأحداث التى تواجه مصر ، وإلى أصحاب الصحف والمجلات الذين يطلبون إليه باستمرار أن يكتب فى كل موضوع ، حتى فى المواضيع التى لاصلة له بها ؛ يطلبون إليه أن يكتب فى شؤون العلم مثلا . فإذا اعتذر لأصحاب العلم بأنه صاحب

أدب لم يقبلوا وألحفوا بالطلب وتوسلوا ليزيدوه إرهاقاً وإزعاجاً وإلى هذا أشار فى إحدى رسائله :

« والناس لا يعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل أو الحديث أو المقدمة رفقاً ولا ليناً ولا مباشرة . . وأكاد أملى ولا حياء . . فهم يطلبون ويطلبون ، ويلحّون ويلحّون فإذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب ، وتشفّعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته ردّاً حتى يبغضوا إليك الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ويوشكوا أن يزهدوك فى الحياة ! » .

وهذا الذى كان يدفعه إلى الهرب من مصر إلى أوربا حين يقبل فصل الصيف ، يخلو فى مرتفعات فرنسا إلى نفسه ، وينسى ثقل هذه المضايقات . . أى كان يقسر نفسه على استعمال إجازته السنوية ليرتاح . . ولكن هل كانت تتوفر له الراحة والاستجمام ؟

لقد رأينا فى الفصول السابقة أنه ما سافر فى إجازة إلا رجع بكتاب جديد . وأكثر الكتب التى ألفها هى وحى رحلاته . . فقد كتب أكثر من كتاب فى ذرى الألب وفى جبال لبنان . .

فالإجازة عنده هى الخروج من حياة إلى حياة والتخفف من أثقال لاحتمال أثقال أخرى . والاستعفاء من بعض

الواجبات لالتزام واجبات أخرى ، وقد أشار إلى هذه الناحية بقوله :

« . . ونحن إذن لا نعفى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل فى عمل آخر . . وإنى لأشهد ، لقد بدأت أجازتى هذا العام — ١٩٤٧ — كما بدأتها فيما مضى من الأعوام فلم أشعر إلا بأنى انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن التزام إلى التزام » .

وهكذا ، وبالرغم من هذه الأثقال والمضايقات فإن إنتاجه الأدبى لم ينقطع . . . وقد ظل ، ولا يزال ، على صلة وثيقة بقرائه فى كافة الأقطار العربية ، ينتقل بهم من أفق إلى أفق ، من اليونان القديمة إلى مصر الحديثة ، من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث ، وله فى كل حقبة من هذه الحقب وقفات طويلة يتحدث فيها عن شتى أنماط الفكر وتيارات الأدب ، فيطيل الحديث ويرسل أضواءه المشعة على تلك الظلمات فينير جوانبها . . وما من ناحية من نواحى التاريخ أو ظاهرة من ظواهر الأدب التى عرض لها إلا وفاها بحثاً ودرساً وخرج بآراء طريفة واتجاهات جديدة . . وآخر ما قدمه للقارئ العربى ، بعد أن ترجم له طرائف من

ڤولتير وأندريه جيد ، كتابه القيم « الفتنة الكبرى أو تاريخ عثمان ابن عفان » ويعرف القراء أن الفتن بين أحزاب المسلمين قد وقعت منذ ولى الخلافة سيدنا عثمان . . وقد انشطرت الآراء حوله : تحزب قوم له ، وتحزب أناس ضده ، واستمر الخلاف آماداً طويلة . ولا يزال فى بعض البيئات الإسلامية إلى يومنا هذا . . وقد أحب طه حسين أن يدرس هذه الناحية بروح المؤلف المنصف الذى برئ قلبه من كل مؤثر . . . فكانت نظرته إلى الأحداث نظرة خالصة مجردة ، لاتصدر عن عاطفة ولا هوى ، ولاتتأثر بالإيمان ولا بالدين . . وإنما هى نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريداً كاملا من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها — بهذه النظرة درس التيارات العاصفة التى أثارت رياح هذه الفتنة ، وقد عرض فى بحثه إلى بدء تكون الإسلام وانتشار رسالته . وإلى الشخصيات الفذة التى لعبت دورها فى تلك الفترة العصيبة . . وإلى الآراء والاتجاهات والمطامع . ثم عرض إلى عوامل الخلاف والنزعات الاقتصادية وهذا الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية . فكان مؤرخاً من الطراز الأول ، وكانت نظرته التاريخية وتفسيره للأحداث تختلفان كل الاختلاف عن نظرة من سبقه من المؤرخين الذين عرضوا

لأحداث التاريخ الإسلامى . . وقد أخذ الكثيرون يتساءلون بعد تلاوة هذا الكتاب لماذا لا ينصرف طه حسين إلى تدوين التاريخ الإسلامى بهذه الروح الكبيرة البعيدة عن الأهواء والنزعات — بهذه النزعة الفلسفية الواسعة الآفاق التى تنظر إلى أحداث التاريخ نظرة موضوعية كما تؤرخ الأحداث العالمية الكبرى . ونرجو أن يواتيه الزمن لتحقيق هذه الرغبات ، ونرجو أن يكون قد استطاع إنجاز الجزء الثانى من هذا الكتاب فى الإجازة التى استعملها هذا العام .

٢٥

فى أواخر عام ١٩٤٨ عقد فى بيروت المؤتمر الثالث للأونسكو ، وقد حضره ما يقرب من خمسمائة مفكر من أبرز مفكرى العالم يمثلون أربعاً وأربعين دولة ، بينهم الوزير الخطير ، والجامعى الكبير ، والمؤلف الشهير ، وأصحاب النظريات فى العلم والأدب عدا عشرات الأساتذة والصحفيين ، وقد شاهد الشرق والغرب فى لبنان مهرجاناً عظيماً من مهرجانات الفكر ، ونظمت هيئة الأونسكو ، بالاشتراك مع الحكومة اللبنانية سلسلة من المحاضرات العامة التى يلقيها بهذه المناسبة أكابر مفكرى العالم كان بينهم المسيو بيدو رئيس وزراء فرنسا سابقاً والمستر هكسلى الأديب العالمى ، وبوده ، وطه حسين ، وغيرهم من أعلام الفكر فى الشرق والغرب ، وكانت محاضرة طه حسين عن « أثر الحضارة العربية فى الحضارة الغربية » فوقف قرابة الساعتين يتكلم بفرنسية عالية مما أثار دهشة وإعجاب مندوبى أمم العالم وقد خرجوا جميعهم وهم مؤمنون بعبقرية هذا الرجل وأن الشرق سيعود إلى سابق مكانته مادام أفراده أمثال طه حسين .

. . .

كانت مصر ، أو كانت الهيئات الرسمية فى مصر ، قد تنكرت لهذا الرجل فى الفترة التى كانت شهرته فيها قد استفاضت فى البيئات الفكرية فى الغرب ، برغم مكانته فى العالم العربى ، وكان خلال هذه الفترة يطوف أوربا ، وقد بدأت جامعات الغرب تستدعيه ليحاضر طلابها ، وقد لقى أكبر حظوة وأجمل تكريم حتى كاد ينوى الإقامة فى الغرب تحدياً لعقوق بعض الهيئات الرسمية التى أخذت تضايقه حتى فى رزقه ! . . ولكن هذه الظلمات ما لبثت أن انجابت حين تسلم الوفد الحكم فى أواخر سنة ١٩٤٩ . فلم يكد رفعة مصطفى النحاس باشا يؤلف وزارته حتى اختار الدكتور طه وزيراً للمعارف. فكان لهذا الاختيار أثره العظيم لدى جميع المفكرين الأحرار ، ورجالات الأدب الذين يذكرون لهذا الإنسان العظيم جهوده الفذة فى سبيل حرية الفكر وفى سبيل تطور العقلية العربية وتسلم عمله الرسمى دون ضجيج . . وهكذا فقد عاد المعلم الحكيم إلى البيئة التى نشأ فى أجوائها ليتابع رسالته وقد استطاع فى فترة قصيرة أن يحدث تغييراً بليغاً فى الأسس والمناهج ، وأن يرسم خططاً جديدة لانقلاب خطير فى العقلية المصرية ، وقد سار فى طريقه محطماً القيود والسدود ، مقتلعاً من طريقه

الأعشاب والأشواك لتحقيق رسالته ؛ ورسالته التعليمية تهدف قبل كل شيء إلى تحقيق الحرية لأبناء وطنه ، فهو يصرخ من الأعماق هذه الصرخة المدوّية فى آذان الذين يلتمسون لوطنهم الحرية فيقول لهم : يجب عليكم ، قبل كل شيء ، أن تنقلوه من الجهل ، وأن تعلّموه واجبه أولا ، وحقه بعد ذلك . ثم يصرخ فى آذان أولئك الذين يلتمسون المجد لوطنهم فيقول لهم : عليكم أن تفتحوا لأبنائه طريق المجد ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم . ثم يختم هذه الصيحة فيخاطب أولئك الذين يلتمسون لوطنهم الكرامة ويأبون أن يكون وطنهم مستذلا لوطن آخر ، ويطالبون بأن تعرف الدنيا مجده القديم وعزته الحاضرة ، فى مستقبل سعيد يلائم ماضيه وحاضره — يخاطب كل هؤلاء بقوله : عليكم أن تمكنوا هذا الوطن من تحقيق هذه الآمال التعليمية واستنقاذه من الجهل ، فلا مجد والجهل مخيّم ، ولا حرية والجهل مستأثر بالقلوب .

ولا يزال الدكتور طه ، إلى كتابة هذه السطور ، يعمل فى الوزارة بصمت ، وقد أثارت أعماله الخطيرة إعجاب أحد خصوم حزبه السياسيين — والسياسة الحزبية فى الشرق تقلب النور ظلاماً ، والخير شرّاً ، والهدى ضلالا ، فرأيناه — وهو وزير سابق — يشيد بعمل زميله

الجبار فى وزارة المعارف ويطلب بروح طيبة « تأميم » أوقات هذا الرجل للإفادة من مواهبه الفذة . .

وقد كانت سنة ١٩٥٠ هى السنة التى احتفل فيها بعيد الجامعة الفضى . . . والدكتور طه أول ثمرة من ثمراتها ، وقد أصبح بعد هذه السنوات الخمس والعشرين وبعد أن أصبح وزيراً للمعارف – أصبح الأب الروحى لهذه الغرسة الطيبة ، وقد أقيمت حفلات فخمة لهذه المناسبة العلمية دعى إليها أكابر المفكرين وأكثر جامعات العالم ، وكان الاحتفال مهرجاناً كبيراً للعلم والمعرفة مما دعا جلالة الفاروق أن يزهو ويعتز كل الاعتزاز بأحد أفراد رعيته الذى أجمعت البيئات العلمية كلها على تقديره والإشادة بمواهبه ، فمنحه رتبة « الباشوية » بكثير من التقدير ، وكانت هذه الرعاية أبلغ تقدير للعلم فى شخص طه حسين . . .

وكانت الدعوات قد أخذت تنهال على « مارتن لوثر » مصر كما تسميه الدوائر العلمية فى الجامعات البريطانية ، « ورينان » مصر الضرير كما تلقبه الصحافة الفرنسية – كانت الدعوات تنهال عليه من الجامعات الكبرى لتمنحه الدكتوراه الفخرية تقديراً لأدبه وعلمه – من ليون ومونبليه ومدريد وروما وأكسفورد وأثينا – فلبّى طلبها واحتفت به حفاوة

بالغة . . وألقى عدة محاضرات كان لها وقعها العظيم فى الأندية العالمية . . وكان فى أجوبته على كلمات الخطباء الذين أشادوا بعظمته كأديب عالمى وجامعى حرّ ، أن هذا التقدير – والتواضع بعض سجاياه – أن هذا التقدير ليس لشخصه بل لمصر . وهذا منتهى الإفراط فى الوطنية النبيلة التى عمر بها قلب طه حسين .

إنه اليوم فى القمة .

وما فتئ هذا المفكر الحر الذى يعمل لمصر والشرق باندفاع وإخلاص .

. . .

إن مجال الكلام عن طه حسين واسع جداً . فكل ناحية من نواحى حياته تستغرق كتاباً مستقلا . وما أردنا من هذا الكتيب إلا أن نسجل لمحات من نواحى هذه الحياة الوثيقة الصلة بحياتنا الفكرية . فقد كان رمزاً لثورة التحرير الفكرى ، وقُرن اسمه بالكثير من الأحداث الأدبية ، وقاد الحركات الفكرية بكثير من الجرأة والإخلاص والذكاء . .

وبالرغم من أعبائه الكبرى فلا يزال المفكرون ، والأدباء بصورة خاصة ، يرقبون منه أن يقوم بأعمال أدبية ضخمة . وما أتمناه شخصياً أن تتاح له الظروف المواتية لتدوين

« تاريخ الأدب العربى فى كافة عصوره » بالنزعة التحريرية التى عرف بها وبالانطلاق الذى وضع أسسه .. فبالرغم من الكتب الكثيرة التى صدرت عن تاريخنا الأدبى لايزال هذا التاريخ الضخم غير مكتوب ، وما كتب عنه قد كتب بروح متزمتة وتفكير ضيق وأسلوب رجعى سقيم .. ولن يستطيع أحد أن يملأ هذا الفراغ غير عميد الأدب ، وهذه أمنية غالية تنطوى عليها صدور الآلاف من قرائه فى الشرق والغرب .

فهل يحقق معالى الوزير الأديب هذه الأمنية الغالية ؟ !

هذا ما نأمله وما نرجوه . .

حلب : ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥١

للمؤلف

نظرات في الأدب والاجتماع
شهر في أوربا
سيف الدولة وعصر الحمدانيين
الفكر العربي بين ماضيه وحاضره
المرأة هذا اللغز الأبدي
أبو العلاء المعري : دفاع ابن العديم عنه
الراحلون
أنواء وأضواء
من أضواء الماضي « سلسلة اقرأ »

Pages Missing
63 - 66


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866